كيف تكون موحدًا ؟



تأليف الشيخ حسن عمر

ذو القعدة 1432

بسم الله الرحمن الرحيم

(الفصل الأول)

إفراد الله

بالشعائر والنسك

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما بعد؛

فلا شك أننا في زمن غربة الإسلام كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بَدَأَ الإسلام غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(١)، وفي رواية: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ»(٢)، وفي رواية: «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ»(٣)، فكيف حدثت غربة الإسلام؟!

غربة الإسلام حدثت نتيجة إعراض الكثير عن تعلم دين الله سبحانه وتعالى، ونتيجة الاشتغال بالشهوات، ونتيجة التساقط أمام أعداء دين الله تعالى وجعلهم مثلاً يُحتذى وغير ذلك من الأسباب، حتى عاد الأمر كما قال علي رضي الله عنه: "يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه"(٤)

فتجد الإنسان يعيش ويموت ولا يدري شيئًا عن حقيقة الإسلام ولا يعرف شيئًا عن أحكام القرآن، ومن أعظم أسباب تلبُّس الباطل على الناس هو عدم معرفة الناس بالجاهلية كما قال عمر رضي الله عنه: "تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"، فإذا علمنا هذا فقد وجب علينا أن نعلم ما هو التوحيد الذي أراده الله من خلال كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيبين معنا بعون الله أن كل ما وقع فيه أهل الجاهلية الأولى قد عاد مرة أخرى بنفس معانيه ومضامينه بل بأشكال أكثر سوءًا وفحشًا، وهذا نتيجة تسمية الأسماء بغير أسمائها الحقيقية، فعندما سمّى الناس عبادة الأضرحة والمقبورين توسلاً وشفاعة وسمّوا التشريع من دون الله ديمقراطية وحكمًا نيابيًا وسمّوا موالاة الكفار وحدة وطنية، وسمّوا استجازة الكفر وحدة الأخوة الإنسانية فهنا التبست الأحكام نتيجة تلبس الأسماء الحقيقية على الناس كما سنبينه بعون الله تعالى، ونحن إذا تحدثنا عن التوحيد وعما يناقضه من الشرك فإننا نقول بعون الله تعالى الآتي:

أولاً: لا بد أن نعلم أهمية تحقيق التوحيد:

١. التوحيد سبب في دخول الجنة كما في الحديث عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ فَقَالَ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شيئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شيئًا دَخَلَ النَّارَ»(٥)، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ»(٦).
٢. المشرك لا يدخل الجنة بحال كما قال تعالى: {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة:٧٢] فمن مات على الشرك لا بد أن يدخل النار، وكل موحدٍ مآله إلى الجنة.

(١) رواه مسلم (٢٣٢)
(٢) المعجم الكبير للطبراني (٥٨٦٧)
(٣) رواه الترمذي (٢٦٣٠)
(٤) علقه البخاري في (خلق أفعال العباد)، ورواه البيهقي مرفوعًا في شعب الإيمان.
(٥) رواه مسلم (١٥١).
(٦) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

٣. يجب علينا أن نعلم أيضًا أنه لا يُقبل أي عمل من الأعمال الصالحة إلا بعد الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وإفراده سبحانه بالعبادة كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أهل كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إليه عِبَادَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، -وفي رواية: أَنْ يُوَحِدُوا الله، وفي رواية: أن يَشْهَدُوا أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ-، فإن هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أن اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فإن هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أن اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ..»(١)، فهنا لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا بأن يبلغهم الصلاة والزكاة إلا بعد قبولهم التوحيد وهو (إفراد الله بالعبادة) كما قال له: «أَنْ يُوَحِدُوا الله» وقد حصل إجماع العلماء على أن الأعمال الصالحة لا تُقبل إلا مع تحقيق الإيمان، وأن الإسلام شرطٌ في قبول أي عمل صالح.

٤. الشرك يحبط كل الأعمال الصالحة: كما قال تعالى -مخاطبًا أشرف الخلق نبيه صلى الله عليه وسلم-: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر:٦٥] فأخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه أُوحى إليه وإلى جميع الأنبياء من قبله أن من أشرك منهم فإن عمله الصالح سيحبط بالكلية، ولن ينفعه شيء بل سيكون من الخاسرين. وكما قال تعالى بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًا وهم (إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط) ... بعد أن ذكرهم سبحانه قال: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام:٨٨] فهنا أكد سبحانه أن الشرك لو وقع من أي أحد -ولو من أفضل الأنبياء عليهم السلام-، فإنه سيحبط كل الأعمال الصالحة عنهم ولن تنفعهم {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} ولذا فإن عائشة رضي الله عنها لما ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جدعان فقالت: يا رسول الله؛ أرأيت عبد الله بن جدعان فإنه كان يقري الضيف (أي: يكرمه)، ويطعم المسكين، ويصل الرحم، فهل نافعه من ذلك شيءٌ؟ فقال: «لَا يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»(٢)؛ إذن الخلاصة: أن الشرك يحبط كل الأعمال الصالحة.

٥. ومن المهم أن نذكر أن التوحيد حق الله تعالى، وما دام قد ثبت أنه حق الله وحده فلا بد أن يستوفيه سبحانه من خلقه، فمن أدَّاه دخل الجنة، ومن لم يؤدِّه دخل النار، ومما يبين هذا أن الله عز وجل قال: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران:٧٩-٨٠] إذن فليس هناك أي نبي مهما كانت منزلته يمكن أن يزعم أن له حق العبادة مع الله، والله سبحانه ينهى عن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا، -مع أنهم أشرف الخلق وأكرمهم على الله- فمن باب

---

(١) أصله عند البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده، ومسلم (٣٦٥).

أولى أن أي مخلوق آخر مهما كانت منزلته ومكانته عند الله لا يصح أن يُتخذ شريكًا من دون الله، ولا أن تُوجه إليه خصيصة من خصائص الله تعالى لأن هذا شرك بالله تعالى، ولذا أيضًا فإن الله تعالى قال في كتابه العزيز: {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أن اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة:١١٦-١١٧] فمع كون المسيح –عليه السلام– رسولاً من أولي العزم من الرسل إلا أن الله عز وجل بيَّن بوضوح أن من أشرك به سبحانه فقد اعتدى على حق الله تعالى مهما كانت منزلته ومكانته عند الله تعالى، لأن التوحيد حق الله تعالى وحده، ويؤكد هذا أيضًا ما ورد في حق الملائكة عليهم السلام حيث قال عنهم المشركون إنهم بنات الله؛ فقال تعالى: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء:٢٦-٢٩] فهنا بيَّن تعالى أن الملائكة ليسوا بنات الله كما يزعم المشركون، ولكنهم عبادٌ مكرمون، وليس لهم أن يفعلوا شيئًا إلا بأمر الله، إلى أن قال تعالى: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} فهنا بيَّن تعالى أنه –لو فُرض– أن أحدًا من الملائكة عليهم السلام زعم الألوهية فإنه سيدخل جهنم حتمًا؛ لماذا؟،لأنه اعتدى على حق الله تعالى –وهو التوحيد– الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ}.

٦. التوحيد أول واجب على كل مخلوق، فهو أول حق لله تعالى:

يبين هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث معاذ رضي الله عنه حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ؟»، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟»، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»(١).

فإذا تبين أن حق الله على العباد:

أ. أن يعبدوه. ب. وأن لا يشركوا به شيئًا.

وأن من فعل ذلك فإن الله لا يعذبه؛ فإن هذا يدلنا على أهمية التوحيد ومنزلته عند الله تعالى، ولذا فإن الله تعالى قال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} فكل ذنب يمكن أن يُعذَّب به العبد ويمكن أن يغفره الله، أما الشرك فإن الله لا يغفره بحال.

٧. التوحيد دعوة جميع الرسل عليهم السلام، وهذا كما قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إليه أنه لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥] وكل رسول من الرسل عليهم السلام أول ما يبدأ في دعوته يقول: {يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} هكذا تكرر في القرآن على لسان نوح وإبراهيم وهود وصالح ولوط

(١) رواه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٥٠)

ومحمد –صلوات الله وسلامه عليهم– وقال الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} هذه هي المهمة الرئيسية والأصلية لكل رسول من الرسل عليهم السلام (اعبدوا الله) (واجتنبوا الطاغوت) –وسوف نبين معنى الطاغوت بعون الله تعالى–.

فإذا تبين معنا أهمية التوحيد ومنزلته العظيمة عند الله تعالى وأنه حقٌ خالصٌ لله تعالى ولا يجوز أن يُوجَّه هذا الحق لغير الله تعالى –مهما كانت منزلة هذا المخلوق عنده سبحانه–، وأن الشرك لا يغفره الله أبدًا، وأن التوحيد شرط صحة لقبول أي عمل صالح، فمن هنا يجب على كل مسلم بل على كل عاقل أن يعلم (معنى التوحيد) حتى يؤدي حق الله تعالى الذي طلبه من كل خلقه،

وحتى يتجنب الشرك بكل صوره.

- **والمشكلة** –كما ذكرنا– أن المنتسبين للإسلام اسمًا يظنون أنهم موحدون بينما الكثير منهم –في الحقيقة– جُهال بحقيقة التوحيد بل يقعون في الشرك الصريح، وذلك لأن أغلب الناس يظنون أن التوحيد هو مجرد اعتقاد وجود الله، وأنه الخالق لكل شيء وأنه على كل شيء قدير، ويظنون أنهم إذا اعتقدوا هذا مع نطقهم بالشهادتين فإنهم يكونون موحدين، وهذا لا شك جزءٌ من التوحيد، ولكن لا يكفي وحده إلا إذا استكمل الإنسان الأمر الآخر، وهو (إفراد الله بالعبادة)، وذلك بأن يُوجِّه كل عبادة لله سبحانه، ولا يوجهها لغير الله، ويكفر بما يُعبد من دون الله، كما قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا} [البقرة:٢٥٦] فاشترط سبحانه الكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله لتحقيق (العروة الوثقى) وهي (شهادة التوحيد) وسوف نبين بعون الله معنى الطاغوت بإذن الله؛ ولكن دعونا نبين مسألتنا ببساطة ...

- **فنقول بعون الله تعالى**: إن المشركين الذين بُعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقرون بوجود الله تعالى وأنه الخالق لكل شيء كما قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزمر:٣٨]، وقال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ } [الزخرف:٩]، وقال تعالى: {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون:٨٥-٨٩]، فإذا كان الكفار الأوائل يقرون بوجود الله تعالى وأنه الخالق لكل شيء وأنه على كل شيء قدير فكيف صاروا مشركين؟ والجواب: أنهم صاروا مشركين لأنهم كانوا يوجِّهون العبادات الخاصة بالله إلى الأصنام –على اعتبارها وسائط بينهم وبين الله تعالى– فيذبحون لها ويدعونها وينذرون لها ويستغيثون بها ويطوفون حولها ويقسمون بها ويتبركون بها... لماذا؟ لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه التماثيل والأصنام هي أصنام لقوم صالحين، وأن هؤلاء الصالحون لهم منزلة ومكانة عند الله، ومن هنا كانوا يتخذونهم واسطة بينهم وبين الله في العبادة، أي أنهم لا يوجهون العبادة لهذه الأصنام لذاتها ولكنهم يقولون إن هذه الأصنام –التي هي لقوم صالحين– ستكون واسطة بينهم وبين الله تعالى لكي يقبل منهم هذه العبادات، وشبهتهم في هذا الشرك هو قولهم: إننا لو وجهنا العبادة لله تعالى مباشرة فقد يتقبلها وقد لا يتقبلها، ولكننا عندما نوجهها لهذه الأصنام –التي هي لقوم

صالحين– فإن الله سبحانه سوف يتقبلها منهم لأن لهم منزلة عظيمة عند الله تعالى، فوقعوا بذلك في الشرك؛ لأنهم وجهوا العبادة لغير الله، ولأنهم اتخذوا واسطة بينهم وبين الله تعالى. وهذا المعنى مذكور في قول الله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر:٣] فهؤلاء المشركون الذين اتخذوا أولياء يوجهون لهم العبادات من دون الله يقولون: إننا لا نعبد هذه الأصنام لذاتها ولكن نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} ومن هنا حكم الله سبحانه عليهم بالكفر، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} تمامًا كما يذهب الرجل إلى السيدة زينب أو الحسين أو البدوي .. أو غير ذلك فيدعوهم أو يذبح لهم أو يطوف بهم أو ينذر لهم أو يستغيث بهم .. فيقول مثلاً مدد يا بدوي أو مدد يا حسين، ويقولون: أنا لو وجهت الدعاء لله مباشرة فقد يستجيب وقد لا يستجيب، بينما لو وجهت الدعاء للحسين أو السيدة أو البدوي، وهم سيشفعون لنا عند الله لكي يستجيب دعاءنا ويقضي حاجاتنا، فإن الله سيقبل منهم دون شك (أي يجعلون هؤلاء وسائط بينهم وبين الله في العبادة) فمن فعل ذلك فهو مشرك، لأنه وجّه العبادات الخاصة بالله تعالى لغيره سبحانه، وجعل هؤلاء الصالحين واسطة بينه وبين الله تعالى، وبالتالي يكون قد فعل عين الشرك الذي وقع فيه المشركون الأوائل الذين اتخذوا الأصنام وسائط بينهم وبين الله تعالى في العبادة، وهؤلاء المشركون بُعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم لينهاهم عن هذا الشرك، وقد وقع الناس المحدَثون في هذا الشرك بسبب أنهم يظنون أن الشرك بالله هو نفي وجود الله فقط أو نفي أن الله خالق لكل شيء، أو لظن بعضهم أن الشرك منحصر في عبادة الأصنام، وأما عبادة الأولياء والصالحين ليست بشرك، وبعضهم يظن أن الشرك هو أن يعبد الشيء لذاته. أما من وجه العبادة على سبيل الواسطة فليس بمشرك مع أن هذا هو عين ما وقع فيه المشركون الأوائل، ومن هنا نجد أن الشرك بالله تعالى كثير جدًا في هذه الأيام متمثلاً في عبادة الحسين والسيدة والبدوي والسيدة نفيسة وغير ذلك من الأولياء والصالحين، ومن هنا نفهم سبب نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء المساجد على القبور كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١)، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا وإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(٢)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(٣)، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ»(٤) فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم: أن من أشر الناس هذين الصنفين: **الأول** الذين تقوم عليهم الساعة لأن القيامة لن تقوم إلا على كفار؛ كما أخبر النبي

(١) رواه البخاري (١٣٩٠).

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

(٣) (صحيح) رواه مالك في الموطأ.

(٤) رواه أحمد، وأصله عند البخاري (٧٠٦٧).

صلى الله عليه وسلم، والصنف **الثاني** الذين يتخذون القبور مساجد، لأن هذا يؤدي إلى عبادة غير الله، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تُصَلُّوا إلى الْقُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا»(١) وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يُصَلَّى إلى قَبْرٍ وَلَا عَلَى قَبْرٍ»(٢) وعَنْ عَائِشَةَ، أن أُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَةُ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إذا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»(٣).

- فلماذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء المساجد على القبور؟ لأن هذا الأمر ذريعة إلى الشرك، فإن الناس إذا بنوا المساجد على القبور –كما هو الحال الآن– فإن ذلك يؤدي إلى تعظيم الموتى المدفونين فيها وإضفاء قدسية عليهم لأنهم مدفونون في الأماكن الخاصة بالعبادة (وهي المساجد) وهذا التعظيم سيؤدي بالتالي إلى اعتقاد أن لهم منزلة عظيمة عند الله، ثم يؤدي إلى جعلهم واسطة في العبادات بين الله تعالى وبين الناس فيبدأ الناس في دعائهم والذبح لهم والنذر لهم والاستغاثة بهم ... يعني يوجهون لهم العبادات الخاصة بالله تعالى، وبالتالي يقعون في عين الشرك.
- والإشكال في ذلك أن الكثيرين من الناس يظنون أن العبادة منحصرة في مجرد الصلاة فيقولون نحن لا نصلي لهؤلاء المقبورين من الأولياء والصالحين، ولكن نرد عليهم بعون الله ونقول: إن هناك عبادات أخرى كثيرة يجب أن تؤدى إلى الله وحده؛ فمن ذلك:
- **الدعاء**: فإن الله عز وجل يقول: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦] وقال الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»(٤)، إذن من دعا غير الله تعالى فإنه يكون قد أشرك بالله لأنه قد وجَّه عبادة خاصة بالله لغيره، أيضًا فإن الله تعالى قال: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف:١٩٤]، وقال الله تعالى: {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون:١١٧] فكل من دعا غير الله ومات على شركه فهو لن يفلح في الآخرة وسيكون من الخاسرين، ومن هنا فالذين يدعون السيدة أو الحسين أو البدوي أو غير ذلك فهم مشركون بالله تعالى.
- أيضًا من أجناس العبادة (**الذبح**) ويبين هذا قوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر:٢] أي فصل لربك وانحر لربك، وكما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:١٦٢]، وقال رسول الله صلى الله

---

(١) رواه مسلم (٩٧٢).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٢١٦٨).

(٣) رواه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٤) (صحيح) رواه الترمذي (٢٩٦٩).

عليه وسلم: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، ...»(١)؛ لأن الذبح عبادة لله فمن وجّهه لغير الله فقد أشرك بالله تعالى وبالتالي يستحق اللعن، وعليه فإن الذين يذبحون للأولياء والصالحين هم مشركون بالله تعالى.

- ومن العبادة **النذر لله تعالى**، ويبين هذا قوله تعالى في مدح المؤمنين: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان:٧]، وقال تعالى: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج:٢٩] فأمر تعالى في هذه الآية بالوفاء بالنذر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَذَرَ أن يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أن يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ»(٢) وقال صلى الله عليه وسلم: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»(٣).

وعلى هذا فإن الذين ينذرون لغير الله فهم مشركون لأنهم يوجهون العبادة الخاصة بالله إلى غير الله كمن ينذرون للحسين أو السيدة زينب أو البدوي أو غيره ويقولون إن نجح الولد في الامتحان أو إن شفى الله فلانًا فإنني قد نذرت سجادًا أو شمعًا أو ذبيحة أو مالاً لسيدي فلان فهذا شرك صريح بالله تعالى، بل إننا لو نظرنا إلى حديث عظيم وهو حديث ثابت ابن الضحاك عندما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنِّي نَذَرْتُ أن أَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ -اسم مكان-، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» ، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»(٤) فهذا الحديث نجد فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجز لهذا الصحابي أن يَفيَ بنذره إلا بعد أن تأكد أن ذبحه في هذا المكان لن يؤدي إلى إحياء عبادة وثن يُعبد من دون الله تعالى أو إحياء عيد من أعياد المشركين.

وهكذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سد الطرق المؤدية إلى الشرك بالله تعالى ولم يُجز للرجل أن يفي بنذره إلا بعد أن تأكد أنه لن يؤدي إلى إحياء عبادة غير الله.

- **ملحوظة هامة:** الوثن هو كل ما يُعبَد من دون الله تعالى وليس فقط الأصنام، ويبِّن هذا ما جاء في حديث الإمام مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» فهنا دعا النبي صلى الله عليه وسلم اللهَ تعالى لئلا يجعل قبره وثنًا يُعبَد، فدل ذلك على أن كل ما يعبد من دون الله يُسمى وثنًا.

- ومن أنواع العبادة **الطواف حول الكعبة** كما قال تعالى: {وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} وكما في الحديث «الطَّوَافُ صَلَاةٌ، فإذا طُفْتُمْ فَأَقِلُّوا الْكَلَامَ»(٥) فإذا كان الطواف حول البيت عبادة لله فإن الطواف حول الأضرحة شرك بالله تعالى بل زد على ذلك أن الذين يعبدون الأضرحة من دون الله تعالى يعتبرونها مزارات مقدسة لها حرمة أكثر من حق الله تعالى. وكم نرى من يسجد على عتبة السيدة زينب ويقبل الرخام في الأرض قبل أن يدخل للطواف حول قبرها.

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨)

(٢) رواه البخاري (٦٦٩٦).

(٣) رواه النسائي في سننه (٣٨١٢).

(٤) رواه أبو داود في سننه (٣١٣٣).

(٥) (صحيح) رواه أحمد والنسائي.

بل إن بعضهم يحج إلى هذه الأضرحة ويأتون لها من الأماكن البعيدة ويشدون لها الرحال رغم نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال في الحديث: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى»(١)، بل نجد أن بعض الناس يحجون لقبر (أبي الحسن الشاذلي) في جبل أسوان ويعتبرون أن الحج إلى (مقام أبي الحسن الشاذلي) يغني عن الحج لبيت الله الحرام. فهل هناك شرك أعظم من هذا؟!

- ومن العبادة (**الحلف بالله تعالى**): وهذا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»(٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لَا تَقُولُوا: وَالْكَعْبَةِ، وَلَكِنْ قُولُوا وَرَبِّ الكَعْبَةِ»(٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»(٥)، -(اللات والعزى) هما صنمان كانا يُعبدان في الجاهلية- فهنا أمر النبي صلى الله عليه وسلم من حلف بغير الله أن يُكفّر عن ذلك بنطق كلمة التوحيد -حتى لو كان حلفه على سبيل الخطأ أو الاعتياد، فقد بوّب لهذا الحديث الإمام ابن القيم -رحمه الله- قائلاً: (فصل: الذاكر إذا قال هجرًا أو جرى على لسانه ما يسخط الله عز وجل)(٦)-. إذن الحلف عبادة لله، ومن حلف بغير الله فقد أشرك لا سيَّما إن اعتبر الشيء الذي يقسم به معظمًا ويجوز الحلف به، ومن هنا فلا يجوز لأحد أن يحلف بغير الله كمن يقولون: والنبي أو والكعبة أو والسيدة أو والحسين ..إلخ، فهذا كله منهي عنه.

- ومن العبادة (**الخوف من الله تعالى**): كما قال تعالى: {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٧٥] وقال تعالى: {فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [المائدة:٤٤] فلا يجوز أن يخشى العبدُ غيرَ الله خاصة في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فإذا نظرت إلى هذا المعنى ونظرت إلى حال عُبّاد القبور والأولياء لرأيت أحدهم يخشى (الولي) الذي يعبده أكثر من الله تعالى، فإذا قيل له: أقسم بالله على كذا، فلا مانع أن يقسم بالله كذبًا، وأما إذا قيل له: أقسمْ بالشيخ فلان على كذا -وكان كاذبًا- فإنه لا يفعل، ويقول: أخشى أن يصيبني بسوء، فتجدهم يُعظّمون هؤلاء الموتى ويخشونهم أكثر من الله تعالى، ويؤدون لهم العبادات الخاصة بالله، ويجعلون لهم من المنزلة والحقوق أعظم مما لله تعالى، فانطبق عليهم قول الله سبحانه: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر:٤٥].

وإذا كان قد حدث في عهد النبوة أن قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا!، بل مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٧).

---

(١) رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٣) رواه البخاري (٢٦٧٩)، ومسلم (١٦٤٦).

(٤) (صحيح) رواه النسائي (٣٧٧٣).

(٥) رواه البخاري (٤٨٦٠).

(٦) (الوابل الصيب من الكلم الطيب) لابن القيم صـ١٤١.

(٧)أخرجه أحمد (٢١٤/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣).

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكر على الرجل مجرد الاقتران اللفظي بين مشيئة الله ومشيئة النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا!» رغم أن الرجل يؤمن أن مشيئة الله سابقة لأي مشيئة؛ ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يسد أي بابٍ يؤدي إلى الشرك.

فكيف بمن وجّه كل العبادات الخاصة بالله إلى غير الله (من دعاء واستغاثة ونذر وذبح وطواف وخوف وحلف ..إلخ) أليس هذا هو عين الشرك الأكبر؟!

- **توابع هامة**:

١. قد يقول قائل: إن سيدي فلانًا له المنزلة كذا وكذا وكان رجلاً صالحًا وكان يفعل كذا وكذا من الخير. فكيف لا نعطيه منزلته التي يستحقها؟، قلنا: إذا ثبت أن أي أحد له منزلة في الإسلام فنحن نعطيه حقه بأن نترحم عليه ونذكره بالخير ونتأسى به في السيرة الطيبة.. ولكن لا نعطيه خصيصة من خصائص الله تعالى، فحق الله عز وجل لا يجوز أن يُعطى لأحدٍ مهما كانت منزلته، وإذا كان الله سبحانه في كتابه العزيز قال: {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران:٨٠]، فإذا كان الله سبحانه قد نهى عن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا، وبيَّن أن هذا كفر -لو حدث- رغم أنهم أشرف الخلق عند الله، وأكرمهم على الله، فمن باب أولى أن من عبد غيرهم فإنه يكون مشركًا، لأن غيرهم أدنى منهم، لأنه اعتدى على الحق الخالص لله تعالى ((التوحيد)).

٢. الله سبحانه أكد على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: {قُلْ إنما أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠] فالرسول صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلق ولكنه بشر، نثبت له خصائص النبوة، ولا نثبت له خصائص الألوهية، فلا نضعه في منزلة الله سبحانه، ولا نعطيه خصائص الله سبحانه، ولذا وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»(١) والله سبحانه خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم في القرآن قائلاً: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ} [آل عمران:١٢٨] فالأمر كله لله يصرفه كيف يشاء بحكمته سبحانه، فإذا كان هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق. فما بالنا بمن هو دونه في المنزلة من المخلوقين؟، ومع ذلك كثيرًا ما نرى الناس يضعون هؤلاء الخلق فوق منزلتهم ويعتقدون فيهم ما لا يليق إلا بالله تعالى.

٣. فلو قال قائل: إن المشهور عن المشركين الأوائل الذين بُعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا لا يؤمنون بالله، ويؤمنون بأن الأصنام آلهة، بينما من يعبدون القبور حاليًا يؤمنون بالله، ولا يقولون إن الأولياء والمقبورين أندادٌ وآلهة؟، قلنا: إن هذه المعلومات المغلوطة مصدرها التليفزيون والجهال. أما كتاب الله تعالى، ثم علماء السلف فقد بينوا الآتي:

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥).

- المشركون كانوا يؤمنون بوجود الله بل يؤمنون بأنه الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء كما قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف:٨٧] وكما قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} [الزخرف:٩] وغير ذلك عديد، وقد سبق ذكر طرف من الآيات الدالة على هذا المعنى في أول الكلام، وأما شركهم فكان بسبب اتخاذ الأصنام واسطة بينهم وبين الله في العبادة، كما قال تعالى عنهم: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر:٣] وقال تعالى عنهم: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ...} [يونس:١٨] إذن فهم كانوا يقصدون التقرب إلى الله تعالى عن طريق هذه الأصنام، فاتخذوهم وسائط بينهم وبين الله في العبادة، وكانوا يقولون إن هؤلاء الأصنام (أو أصحابها الأصليون) سيشفعون لنا عند الله تعالى ولذا وجدنا المولى سبحانه يثبت لهؤلاء المشركين قدرًا من الإيمان؛ وهو إيمانهم بأن الله خالق لكل شيء، ورازق لكل شيء، ومدبر لكل شيء، ولكن هذا القدر لا ينفعهم لشركهم في الألوهية حيث يوجهون خصائص الله سبحانه إلى الأصنام، وهذا أيضًا واضح في قوله تعالى عن المشركين: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [يوسف:١٠٦] فهم عندهم قدرٌ من الإيمان مع تلبسهم بالشرك. قال ابن عباس: "مِنْ إِيمَانِهِمْ إذا قِيلَ لَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ، وَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ، وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ؟ قَالُوا: اللَّهُ، وَهُمْ مُشْرِكُونَ به"، وقالت طائفة من السلف: "تسألهم من خلق السموات ومن خلق الأرض فيقولون الله، وهم مع هذا يعبدون غيره" وهكذا تجد أن عُبّاد القبور والأضرحة يفعلون عين ما كان يفعله المشركون الأوائل وربما يزيدون عليه، فإن الله تعالى حكى عن المشركين الأوائل قائلاً:{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت:٦٥] فالكفار الأوائل كانوا يدعون غير الله فإذا ركبوا في الفلك وخافوا الغرق فإنهم يدعون الله وحده {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} فإذا عادوا إلى البر والرخاء دعوا الأوثان ثانية {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ} أما عُبّاد القبور والأضرحة الآن فإنهم يشركون في السراء والضراء بل ربما إذا اشتد الضر بأحدهم كان لجوؤه إلى وليه أكثر.

٤. فإن قلت: لماذا اتخذ الناس الأوائل الأصنام آلهة يدعونهم ويذبحون لهم ويعبدونهم؟ قلنا لك: الجواب هو ما ورد في تفسير قوله تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً} [نوح:٢٣-٢٤] أي: قال المشركون من قوم نوح لبعضهم البعض، وأوصى بعضهم بعضًا بعدم ترك الآلهة، وعدم ترك عبادة (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) فمن هؤلاء الخمسة؟ هؤلاء الخمسة هي أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله. قال البخاري: ... عن ابن عباس: «أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ، أن انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا (أي حجارة

على هيئة تماثيل لهم) وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إذا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ»[(١)] وكذا هو قول عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحق.

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس في تفسير الآية: "كَانُوا قَوْمًا صَالِحَيْنَ مِنْ بَنِى آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إلى الْعِبَادَةِ إذا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إنما كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمطَرَ فَعَبَدُوهُمْ.

وروى ابن أبي حاتم .. عن أبي المطهر عن أبي جعفر: وكانوا قد ذكروا عنده يزيد بن المهلب فقال: "أَمَا إنه قُتِلَ فِي أَوَّلِ أَرْضٍ عُبد فِيهَا غيرُ اللَّهِ. -قَالَ: ثُمَّ ذَكَرَ (وَدًّا)- قَالَ: وَكَانَ (وَدٌّ) رَجُلاً مُسْلِمًا وَكَانَ مُحَبَّبًا فِي قَوْمِهِ، فَلَمَّا مَاتَ عَسْكَرُوا حَوْلَ قَبْرِهِ فِي أَرْضِ بَابِلَ وَجَزِعُوا عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى إِبْلِيسُ جَزَعهم عَلَيْهِ، تَشَبَّهَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي أَرَى جَزَعَكُمْ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَهَلْ لَكَمَ أن أُصَوِّرَ لَكُمْ مثله، فيكونَ في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نَعَمْ. فصُوِّر لَهُمْ مَثَلُهُ، قَالَ: وَوَضَعُوهُ فِي نَادِيهِمْ وَجَعَلُوا يَذْكُرُونَهُ. فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ ذِكْرِهِ قَالَ: هَلْ لَكُمْ أن أَجْعَلَ فِي مَنْزِلِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ تِمْثَالاً مِثْلَهُ، فَيَكُونَ لَهُ فِي بَيْتِهِ فَتَذْكُرُونَهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَمَثَّلَ لِكُلِّ أهل بَيْتٍ تِمْثَالاً مِثْلَهُ، فَأَقْبَلُوا فَجَعَلُوا يَذْكُرُونَهُ بِهِ، قَالَ: وَأَدْرَكَ أَبْنَاؤُهُمْ فَجَعَلُوا يَرَوْنَ مَا يَصْنَعُونَ بِهِ، قَالَ وَتَنَاسَلُوا ودَرَس أَمْرُ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ (أي: اندثر)، حَتَّى اتَّخَذُوهُ إِلَهًا يَعْبُدُونَهُ مَنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلَادُ أَوْلَادِهِمْ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا عُبِدَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ: الصَّنَمُ الَّذِي سَمَّوْهُ وَدًّا"[(٢)].

إذن بان معنا أن أول أصنام عبدتها البشرية من دون الله -ولأجل ذلك بُعث إليهم نوح عليه السلام- كانت أصنام قوم صالحين أراد الناس الاقتداء بهم وتذكر عبادتهم لله فما زال الشيطان بهم حتى أوقعهم في عبادة هذه الأصنام لذاتها، وكان الجهل من هذه الأسباب كما سبق في رواية ابن عباس وغيره (حَتَّى إذا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ)، ونفس المعنى تكرر على مر الأيام حيث أراد الناس إكرام آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم والأولياء والصالحين فوضعوهم في المساجد (التي هي محل العبادة لله تعالى) مما أدى إلى تعظيمهم وعبادتهم من دون الله.

٥. ومما يوضح لك جهل عُبّاد القبور وشيوخ الضلال الذين يفتون الناس بالشرك أن الله تعالى قال: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن:١٨] فالمساجد لله وحده، وليست لأي مخلوق آخر، وهي محل عبادة الله وحده، ثم يؤكد سبحانه {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} فما بالك بمن يدعو الحسين والسيدة والبدوي وغير ذلك من المقبورين. أليس هذا عين المخالفة لأمر الله تعالى، وعين الشرك بالله؟

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) راجع تفسير ابن كثير (سورة نوح:٢٥-٢٨).

٦. فلو قال قائل: نحن نحب آل البيت ونحب الأولياء والصالحين، قلنا لهم: ونحن نحب آل البيت ونحب الأولياء والصالحين، وحُبنا لهم يجعلنا نترحم عليهم ونترضى عليهم ونتأسى بهم في فعل الخيرات، لكن لا يقتضي حبنا لهم أن نعبدهم من دون الله؛ سواء لذاتهم أو كواسطة بيننا وبين الله سبحانه، فالعبادة حق لله تعالى وحده.

٧. فإن قلت: إن المشركين الأوائل كانوا يسمون أصنامهم آلهة، والناس حاليًا لا تسمي المقبورين آلهة ولا أندادًا. قلنا لهم: إن المشركين الأوائل كانوا يعلمون اللغة ومعانيها فمن هنا كانوا يسمون هذه الأصنام آلهة لأنهم علموا أن كل ما عُبد من دون الله يُسمى إلهًا وإن كان إلهًا مزعومًا، ومما يبين هذا أن الله تعالى قال: {فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف:٢٨] أي: فهلّا نصرهم الأنداد الذين اتخذوهم آلهةً من دون الله؟ بل ضلوا عنهم، وذلك كذبهم وافتراؤهم فالآلهة هنا آلهة مزعومة على حسب ادعاء الكافرين لا على جهة الحقيقة، والناظر في قول الله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [فاطر:٤٠]، وفي هذه الآية نجد أن الله تعالى خاطب المشركين مستنكرًا عليهم اتخاذهم شركاء يدعونهم دون الله مع أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض وليس لهم شرك في السماوات وكأن المعنى ما داموا لم يخلقوا فكيف تعبدونهم، فالذي يخلق هو الذي يستحق العبادة، وهذا المعنى متكرر كثيرًا في القرآن كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٢١-٢٢] فهنا بين الله تعالى أنه إذا كان الله هو الخالق وحده فلا يجوز أن يُعبد غيره.

والخلاصة: أن معنى الآلهة هي الآلهة الباطلة؛ وليس المعنى أنها خالقة، ولكن بمعنى أنهم كانوا يعبدونها من دون الله، فكل ما عبد يُسمى إلهًا -سواء كان بحق أو بباطل-، ولذا فإن معنى قول (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحق إلا الله.

٨. قد يقول قائل: ولكن المشركين في الماضي كانوا يرفضون أن يقولوا لا إله إلا الله ونحن نقول لا إله إلا الله فكيف يصح القول بأن الناس واقعون في الردة والشرك مع كونهم مقرين بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟ فالجواب هو الآتي:-

١- بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن هناك من أمته من سيقعون في الشرك كما قال صلى الله عليه وسلم: «.. وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، حَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أنه نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»(١). وقال صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الخَلَصَةِ»(٢). فهنا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن تقوم القيامة حتى تطوف نساء قبيلة دَوْس حول صنم ذي الخلصة الذي كانوا يعبدونه في الجاهلية،

---

(١) رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح.

(٢) رواه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»[١] ففيه دلالة على أن هناك من سيبدل دين الإسلام ويرتد عنه ومن هنا فقد عقد جميع العلماء فصلاً في كتب الفقه بعنوان كتاب (المرتد) ذكروا فيه جملة من أسباب الردة والأحكام المترتبة على هذه الردة وكان من ضمنها قولهم: "أجمع العلماء على أن من اتخذ وسائط من دون الله يدعوهم ويتوكل عليهم كفر"[٢].

٢- هناك فرق بين أن يقول الكافر الأصلي لا إله إلا الله محمد رسول الله فيُعبّر بذلك عن دخوله في الإسلام وانتسابه إليه وبين المرتد الذي ينتسب اسمًا للإسلام ومع ذلك يقع في ردة مخرجة من ملة الإسلام، فهنا إذا أراد هذا المرتد أن يتوب فلا بد من أمرين: (الأول) أن يقلع عن نوع الكفر الذي أخرجه من ملة الإسلام فيتوب منه، و(الثاني) أن ينطق بالشهادتين مرة أخرى، وعلى هذا فلا بد أن يقلع المرتد عن الردة التي وقع فيها حتى ينتفع بالشهادتين أو غيرهما من شعائر الإسلام، أما إن ظل هذا المرتد على ردته ومع ذلك ينطق بالشهادتين فهما لا تنفعانه بحال ولا بد أن يتوب من عين الكفر الذي ارتد بسببه. قال الشيخ محمد نعيم ياسين وهو يعلق على مسألة النطق بالشهادتين: "وهذا الذي تقدم خاص بمن كان كافرًا ولم يسبق له الدخول في دين الله، وأما المرتد عن الإسلام فإنه لا يُحكم بإسلامه إلا إذا أقر بما كان قد جحده من أمور الإيمان بالإضافة إلى الشهادتين.. فإن كان ارتداده بسبب جحود الوحدانية أو الرسالة اكتُفي بهما، وإلا فلا بد منهما وأن يقر معهما بالأمر الذي كان قد أنكره، فإن كان ينكر فرضية الزكاة مثلاً أو حرمة الربا أو الزنا فإنه لا يعود إليه إسلامه حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقر بفرضية أو حرمة ما أنكره"[٣].

٣- ينبغي أن يعلم أن الله عز وجل اشترط لقبول توبة المشركين أمرين: الأول أن يتوبوا عن الشرك الذي يقعون فيه، والثاني أن يلتزموا شرائع الإسلام، وهذا كما قال تعالى عنهم: {فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} [التوبة:١١] أي: (فإن تابوا من الشرك) وكانت توبتهم من الشرك يعبرون عنها بقول لا إله إلا الله -أي: لا معبود بحق إلا الله-، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم ويعبرون عنها بقول محمد رسول الله، ولذا لما سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان عما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو سفيان: "يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ"[٤] أيضًا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»[٥] فهنا بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن حرمة الدم والمال موقوفة على أمرين:

١. النطق بكلمة التوحيد. ٢. الكفر بما يُعبد من دون الله.

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧)، وأبو داود.

(٢) راجع كتاب (الإقناع) لابن مفلح الحفيد، و(كشّاف القناع) للبهوتي ج٦.

(٣)راجع (الإيمان) لمحمد نعيم ياسين ص١٢٥، و(المغني) ج٩ ص٢١ -كتاب المرتد-، و(حاشية ابن عابدين) ج٣ ص٣٩٧.

(٤) رواه البخاري (٧).

(٥) رواه مسلم (٢٣).

٤- من المعلوم أن الصحابة قاتلوا مانعي الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم (قتال ردة) مثلَهم مثلَ من ادعوا النبوة كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي وسجاح، وكانوا إذا نزلوا بجوار قبيلة انتظروا وقت الصلاة فإن لم يسمعوا الأذان أغاروا عليهم، وإن سمعوا الأذان سألوهم عن الزكاة؛ لأن ردة البعض كانت بجحد الزكاة وليس لإنكار الشهادتين.

٥- إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُمِرْتُ أن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أن لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأن مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»(١)، أيضًا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»(٢)، فالأول في حق الكفار الأصليين حيث إنهم لم يكونوا ينكرون لا إله إلا الله. بينما الحديث الثاني عام في كل من أشرك بالله تعالى.

وهكذا بان معنا أن هناك فرقًا بين إسلام الكافر الأصلي وذلك بنطقه بالشهادتين وإظهار الالتزام بشرائع الإسلام إجمالاً وهو ما يُسمى بـ(الإسلام الحكمي) عند العلماء، فإذا التزمها كان (إسلام حقيقي)، وبين (توبة المرتد) فإن المرتد يكون مقرًا بالشهادتين ولكنه ينقض معنى الشهادتين من خلال الإتيان بكفر أكبر (اعتقادًا، أو قولاً، أو عملاً). فهذا لا بد من توبته من عين الكفر الذي خرج به من ملة الإسلام بالإضافة إلى نطقه بالشهادتين (يعي يدخل الإسلام من نفس الباب الذي خرج بسببه).

وبان معنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه سيكون في هذه الأمة من يرتد ويرجع عن دين الإسلام، وقد ورد في تفسير قوله تعالى: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر:١-٣] روى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا»(٣)، وعلى العموم فإن قوله صلى الله عليه وسلم: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(٤)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «يُوشِكُ أَن يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»(٥). فهذان الحديثان وغيرهما يؤكدان المعنى السابق؛ فإن غربة الإسلام لن تعود إلا إذا نكث الكثير من الناس عن دين الله سبحانه وتعالى وانتشر الجهل وقلَّ العلم؛ فمن هنا يجب على كل مسلم ومسلمة ألّا يغترَّ بكثرة الهالكين وغربة الدين وانتشار الشرك والفساد بكل صوره في هذه المجتمعات.

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٠).

(٢) رواه البخاري (٤٤٩٧).

(٣) رواه أحمد، وإن كان فيه ضعف لجهالة جار جابر بن عبد الله إلا أن معناه مقبول ومحمول على آخر الزمان (زمن غربة الإسلام).

(٤) رواه مسلم (١٤٥).

(٥) رواه البخاري (١٩).

٩. ونلفت نظر القارئ إلى أن أول ظهور لهذه الأفعال الشركية وبناء المساجد على القبور قد بدأ على يد من – يُسَمَّون– (بالفاطميين) وهؤلاء على التحقيق من نسل المجوس –عبَّاد النار– الذين أظهروا الإسلام في الظاهر وأرادوا الكيد به في الباطن وأصلهم ينتسب إلى (بني عبيد القدّاح)[1].

وقد ظهروا في بلاد المغرب وسط قبائل كتامة البربرية حيث أقنعوهم بدعوتهم الغريبة، واستطاعوا أن يقيموا دولة لهم هناك، ثم تمكنوا من غزو مصر في عصر الدولة العباسية الثانية، ورفعوا شعار الفاطمية نسبة إلى فاطمة –رضي الله عنها– وهي منهم براء، وبنوا المساجد على القبور، وأظهروا البدع الكثيرة، وكانوا يجاهرون بسبّ الصحابة، وألغوا التقويم الهجري، وجعلوا ميراث الأنثى مثل الذكر، وأكثروا من استعمال الأمراء اليهود والأرمن النصارى؛ فجعلوا (ميشا) اليهودي أميرًا على المسلمين، و(نسطورس) النصراني أميرًا آخر، وحاربوا أهل السنة، وقتلوا ما يزيد عن ثلاثة آلاف من علماء المالكية بالمغرب؛ لأن هؤلاء العلماء رفضوا أن يعترفوا بإسلامهم... إلى غير ذلك من مفاسدهم العظيمة المدونة في كتب التاريخ. فكان هؤلاء هم أول من بنى المساجد على القبور وقالوا إن الأولياء تسقط عنهم العبادة وأن الولي في مقامٍ أعلى من النبي حتى قال قائلهم:

مقام النبوة في برزخٍ فُوَيق الرسول ودون الولي

فاعتبروا أن مقام الولاية أعلى من مقام النبوة، وقد أكثروا من بناء المساجد على القبور وبَنَوا دار الحكمة في شارع القصر العيني التي كانوا يدرّسون فيها تعاليمهم الباطنية، وعلى يد هؤلاء وأمثالهم ظهرت الفرق الصوفية وانتشر بناء المساجد على القبور وظهر الشرك بصوره الكثيرة، ورغم أن صلاح الدين ألغى الخلافة الفاطمية، وأعاد الكثير لمكانة أهل السنة في بلاد مصر والشام إلا أن هذه البدع كانت قد تغلغلت في الناس وما زال بقايا ميراثهم باقيًا حتى الآن، فإذا علم المسلم هذا فإنه يدرك أن منشأ هذه الشركيات كانت على يد أناس خبثاء أرادوا الكيد لعقيدة المسلمين تحت شعار محبة أهل البيت والأولياء والصالحين فتلبَّس الأمر على الناس، ونسأل الله أن يزيل الباطل ويظهر الحق.

١٠. فلو قال قائل: إن هناك علماء كثيرين يُجيزون بناء المساجد على القبور ويجيزون الصلاة في المساجد التي بها القبور .. فما الجواب على ذلك؟!

فنقول بعون الله الآتي:

- من المعلوم لكل مسلم ومسلمة أنه إذا حدث خلاف بين العلماء أو اختلفت آراء المسلمين في مسألة فيجب الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة لحسم هذا الخلاف كما قال تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النسا:٥٩]، بل نضيف جملة من أقوال أئمة السلف التي تؤكد حقيقة الرد للكتاب والسنة عند الاختلاف؛ فمن ذلك:

(١) راجع (الكامل) لابن الأثير، والسيوطي في (أخبار الدولة الخبيثة).

أ) عن أبي حنيفة -رحمه الله- قال: "إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبي"(١)، وقال أيضًا: "إذا قلت قولاً يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي"(٢).

ب) وعن الإمام مالك -رحمه الله- قال: "إنما أنا بشر أُخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"(٣)، وقال أيضًا: "ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم"(٤).

جـ) وعن الشافعي -رحمه الله- قال: "ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتَعْزُب عنه، فمهما قلت من قول، أو أصَّلت من أصل فيه عن رسول الله خلافُ ما قلتُ، فالقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي"(٥)، وقال أيضًا: "أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله لم يحل له أن يدعها لقول أحد"(٦)، وقال: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت"(٧)، وقال: "إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبي".

د) قال أحمد بن حنبل -رحمه الله-: "لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا"(٨)، وقال أيضًا: "من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة"(٩).

- فلا يجوز لأحد أن يترك الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة لقول أحد مهما كانت منزلته، واعلم أن أحاديث رسول الله التي ينهى فيها عن بناء المساجد على القبور قد بلغت حد التواتر المعنوي -كما قال القرطبي في تفسير الآية:١٠٤ من سورة البقرة-.

- **أخيرًا بقي أن نقول:**

١- إن المسلم يبحث عن الحق وعن النجاة في الآخرة فمن هنا فهو يبحث عن الحق ولو خالف أغلب الناس، وصدق الله حيث يقول: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ و إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الأنعام:١١٦]، وأما أهل الحق فلا يتبعون إلا الدليل الواضح حتى يتأكدوا من مراد الله سبحانه، وأن ما يتعبدون به هو الحق. وكما قيل: اعرف الحق تعرف أهله.

٢- هناك شبهات كثيرة لم نتعرض للرد عليها لئلا يطول بنا المقام ولعلنا نوردها مرة أخرى بإذن الله ولكن نحيل إلى كتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد) لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكتاب (تحذير الساجد من اتخاذ القبور

(١) رواه ابن عبد البر في (الانتقاء)، وابن القيم في (إعلام الموقعين)، وابن عابدين في (الحاشية).

(٢) رواه الفلّاني في (الإيقاظ).

(٣) رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم).

(٤) رواه ابن عبد البر في (الجامع)، وابن حزم في (الإحكام في أصول الأحكام).

(٥) رواه الحاكم، وابن القيم في (إعلام الموقعين).

(٦) ابن القيم والفلّاني.

(٧) رواه الخطيب في (الاحتجاج بالشافعي)، والهروي في (ذم الكلام).

(٨) رواه الفلاني، وابن القيم في (الإعلام).

(٩)رواه ابن الجوزي في (مناقب أحمد).

مساجد) للألباني، وكتاب (معارج القبول) للحافظ بن حكمي، حيث فيهم مزيد من التفصيل والرد على الشبهات بإذن الله تعالى.

٣- على كل مسلم ومسلمة أن يدعو إلى الحق فإن الله سبحانه أوجب علينا الدعوة إلى دينه فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [آل عمران:١١٠] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شيئًا»[٢].

وحقٌ على كل مسلم أن يدعو كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ... آمين.

(١) رواه أحمد والترمذي والطبراني والبزار.

(٢) رواه أحمد، ومسلم (٢٦٧٤).

(الفصل الثاني)

إفراد الله

بالتشريع والتحليل والتحريم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن والاه، وبعد؛

لقد اتضح معنا أن توجيه الشعائر والنسك –من صلاة أو دعاء أو ذبح أو نذر أو طواف أو استغاثة إلى غير ذلك من عبادات– لغير الله شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام، ولكن الشرك بالله تعالى ليس قاصرًا على شرك الشعائر والنسك، ولكن يدخل فيه أيضًا أمران؛ وهما: (التحاكم لغير شرع الله والتحليل والتحريم بما يناقض شرع الله)، و(الولاء والنصرة على غير دين الله سبحانه)؛ فأما ((شرك التحاكم إلى غير شرع الله سبحانه، والتحليل والتحريم بما يناقض شرع المولى عز وجل)) فهذا راجع إلى أن من خصائص الله سبحانه وتعالى (الحكم) و(التحليل والتحريم) كما قال تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف:٥٤] فكما أن الخلق لله وحده، فالحكم أيضًا لله وحده. فمن نازع الله سبحانه في عبادته فهو طاغوت يجب أن يُكفر به. كذلك فإن من نازع الله في الحكم والتشريع يكون طاغوتًا منازعًا لله في خصائصه يجب أن يُكفر به، وكما أن الله سبحانه قال: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف:١١٠] فنهى سبحانه عن الشرك به في العبادة، وكذلك فإن الله تعالى قال: {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف:٢٦] والحكم هنا ليس قاصرًا على قضاء الله وقدره وحكمه الكوني، ولكنه يشمل حكمه التشريعي للبشر أيضًا، ومما يبين هذا أن هذه الآية {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} وردت في قراءة ابن عامر –وهي من القراءات السبع المتواترة– هكذا {وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} بصيغة النهي؛ وبالتالي فليس الشرك في الحكم متعلقًا بحكم الله الكوني والقضاء والقدر، ولكنه أيضًا متعلق بالحكم التشريعي بدلالة أن الله تعالى نهى عن الإشراك به في الحكم، وخاطب بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم(١)، فدل هذا على أن الشرك بالله يكون في الحكم والتشريع كما أنه يكون في العبادة، ومن هنا فإن الله تعالى سمى كل من يشرع شيئًا جديدًا مخالفًا لما شرعه سبحانه – سماه شريكًا كما قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى:٢١]. فكل من شرع ما لم يأذن به الله مضاهيًا دين الله سبحانه فهو شريك يجب أن يكفر به المسلمون.

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى عن اليهود والنصارى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [التوبة:٣١] وقد ورد في تفسير الآية: أن عديًّا بن حاتم وكان نصرانيًا ثم أسلم –ولم يكن قد أسلم بعد– فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه يقرأ هذه الآية فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قال: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(٢) فهنا تجد أن عديًا لما سمع الآية {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ ..} فاستغرب، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ" وذلك ظنًا منه أن العبادة قاصرة على توجيه الصلاة والشعائر لغير الله، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم بأن المقصود من عبادتهم: أي طاعتهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، كما قال: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، قال عدي: بلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»، إذن فالتحليل والتحريم من حق الله وحده، فمن نازع الله عز وجل هذا الحق فقد نازع الله في ألوهيته، وجعل نفسه شريكًا لله تعالى تمامًا كما سمَّى الله سبحانه (الأحبار والرهبان) أربابًا من دون الله، ومن أطاعهم في هذا التحليل

(١) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويُقصد به جميع أمته أيضًا.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن جرير والطبراني بإسناد حسن.

والتحريم فقد اتخذهم أربابًا من دون الله، لأن التحليل والتحريم حقٌ خالصٌ لله سبحانه، فمن جعله لنفسه فقد نازع الله في ألوهيته، ولذا فنحن ننبه على أن ما يُسمى بمجلس الشعب أو البرلمان يُسمى في الدستور بـ(السلطة التشريعية) وله حق سنّ القوانين، وفي الحقيقة فهو مجلس شركي وأعضاؤه شركاء منازعون لله في ألوهيته لأنهم لا يُحكِّمون شرع الله في كثير من الأحكام، بل إنهم جعلوا من أنفسهم سلطة أعلى من دين الله هي التي تأذن له أن يحكم أو لا يحكم، وعندما يقولون: إن أعضاء المجلس لو وافق أغلبهم على تحكيم الشريعة فقد وجب إنفاذ القوانين بذلك، فهذا كذب من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو كفر؛ لأنهم جعلوا من أنفسهم سلطة أعلى من دين الله، ودين الله وأحكامه لا تنفذ بذاتها، بل هم الذين يأذنون لها أن تحكم أو لا تحكم.

ومما يؤكد ما سبق ما ورد في الحديث أن رجلاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان يُكنى (أبا الحكم) –أي لقبه الذي يُنادى به– فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ؟» فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قَالَ: لِي شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»[(١)].

فقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» يفيد أن (الحَكَم) من أسماء الله تعالى لا يجوز لأحد أن يتسمى بهذا الاسم، وقوله (وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ) يفيد أن الحُكم خاصٌ بالله تعالى وأن مرد الأحكام والتشريع يجب أن يُرد إليه عز وجل كما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى:١٠] وكما قال تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء:٥٩] فأوجب سبحانه عند حدوث أي اختلاف وتنازع أن يرد المؤمنون إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والرد إلى الله بالرد إلى كتابه، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجوع إليه في حياته، وإلى سُنته بعد وفاته.

والمقصود مما سبق: بيان أن (الحُكم) من خصائصه سبحانه وتعالى، فمن نازعه فيه كان طاغوتًا يجب أن يُكفر به.

ومما يؤكد هذا أيضًا قوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} [يوسف:٤٠] فهذه الآية ذكرها سبحانه بصيغة الحصر والقصر ليبين أن الحكم حق خالص لله سبحانه فمن نازعه فيه فقد نازع في خصيصة من خصائصه وكان بذلك إمامًا من أئمة الكفر.

ومن ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} [النساء:٦٠-٦١] قال الإمام المفسر ابن كثير –رحمه الله–: "هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الإيمان بِمَا أنزل اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مع ذلك يريد أن يتحاكم فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ورجل

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني.

من اليهود تخصاما، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ، وَذَاكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَاهُنَا، وَلِهَذَا قَالَ: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} إلى آخرها. وَقَوْلُهُ: {يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} أَيْ: يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: {وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أنزل اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا} [لقمان:٢١] وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: {إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا} [النور:٥١]"(١).

قلتُ: ذكر الله عز وجل في هذه الآية صنفين من الناس:

الصنف الأول: وهم الذين يريدون التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء ليسوا مؤمنين.

الصنف الثاني: وهو المتحاكَم إليه: وهو الطاغوت.

- فأما الصنف الأول: (وهو من أراد التحاكم إلى غير الكتاب والسنة) فقد سمّى الله إيمانهم زعمًا كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ} [النساء:٦٠] وسمّاهم منافقين صراحة بعد ذلك كما قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} [النساء:٦١]، فهؤلاء غير مؤمنين بل فيهم خصائص النفاق الأكبر.

ومن المعلوم أن كل من ظهرت عليه علامات النفاق الأكبر بعد عهد النبوة فإنه يُسمى مرتدًا لا منافقًا كما قال حذيفة بن اليمان –رضي الله عنه–: «إِنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا اليَوْمَ فَإِنَّمَا هُوَ الكُفْرُ بَعْدَ الإِيمَانِ»(٢)، هذا في شأن المتحاكِمين (أي: الذين يتحاكمون) إلى غير الكتاب والسنة.

- وأما الصنف الثاني: فهو (المتحاكَم إليه غير الله ورسوله)، وهذا هو الطاغوت المذكور في الآية: {يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ}. والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله وهو راضٍ، وهو أيضًا كل من نازع الله عز وجل في خصيصة من خصائصه، ومن هنا فإن الذي يشرّع للناس قوانين منافية لشرع الله سبحانه ومخالفة له فهذا طاغوت كافر يجب أن يُكْفَر به، والذي يحكم بهذه القوانين من قاضٍ ونحوه فهو كافر أيضًا لعموم قوله تعالى: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤] بل نضيف إلى ذلك أن الله عز وجل قال: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٥٠]، وهنا يقول الإمام ابن كثير –رحمه الله–: " يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدْلٍ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا كَانَ أهل الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الياسق، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قد اقتبسها من شَرَائِعَ شَتَّى: مِنَ الْيَهُودِيَّةِ

---

(١) تفسير ابن كثير (سورة النساء).

(٢) رواه البخاري (٧١١٤).

وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الإسلامية وغيرها، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الأحكام أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نظره وهواه، فصارت في بينه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فَلَا يحكم سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ، قال تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} أَيْ يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ، وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ، {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} أَيْ وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخلقهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ"(١). وهذا الكلام السابق للعلامة ابن كثير – رحمه الله– يفيد أن كل من حكم بغير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كافر، بل يجب قتاله حتى يُحكّم شرع الله فلا يُحكّم سواه في قليل أو كثير ويفيد أن (الياسق) –وهو كتاب الأحكام الذي شرعه ملك التتار جنكيز خان للتتار– عبارة عن أحكام منها ما هو مأخوذ من اليهودية، ومن النصرانية، ومن الملة الإسلامية فضلاً عن أحكام أخذها من مجرد نظره وهواه.

إذن فأي قانون لا يُحكّم الإسلام وحده هو قانون كفر، وواضعه كافر، والحاكم به كافر، ولا ينفي عنه هذه الصفة احتواؤه على بعض أحكام الإسلام.

بل أضف لذلك أن الشيخ ابن كثير قال أيضًا: "فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ، فَكَيْفَ بِمَنْ تحاكم إلى الياسا وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإجماع الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الْمَائِدَةِ:٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥] صدق الله العظيم"(٢)

- ونضيف إلى ما سبق أن الله سبحانه سمَّى كل تشريع يخالف شرع الله سبحانه –سماه دينًا، وهذا كما ذكر سبحانه قصة يوسف –عليه السلام– ومنها عندما أتاه إخوته من فلسطين إلى مصر للحصول على القمح بعد المجاعة التي عمت الأرجاء وأراد يوسف –عليه السلام– أن يستبقي أخاه (بنيامين) معه في مصر فصنع حيلة لذلك، وهي أنه وضع السقاية في رحل أخيه كأن أخاه سرقها، ثم أرسل مناديًا ينادي على إخوته بأنهم سارقون، فنفوا ذلك عن أنفسهم، فسألهم عن حكم السارق في شريعة إبراهيم –عليه السلام– لأنهم كانوا أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام فأجابوه بأن شريعة إبراهيم –عليه السلام– تقضي بأن يؤخذ السارق كمملوك عند من سرقه، وفي المقابل كان هناك قانون آخر لملك مصر يقضي بالغرامة والتأديب على السارق، وبدأ يوسف –عليه السلام– يفتش أمتعتهم وبدأ بأمتعة إخوته ثم أخرج الصواع من رحل أخيه، وبموجب هذا أخذ أخاه كمملوك تابع له –وفق شريعة إبراهيم عليه السلام–، ولم يطبّق قانون الملك في السرقة، وهنا قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [يوسف:٧٦] أي ما كان ليوسف –وهو نبي– أن يأخذ أخاه في دين الملك –أي قانون الملك

(١) تفسير ابن كثير (المائدة: ٥٠).

(٢) (البداية والنهاية) ج١٣ ص١٠٣، عند الحديث عن ترجمة جنكيزخان.

المتعلق بحد السرقة- والشاهد منه واضح وهو أن الله تعالى سمّى القانون المخالف لشرع الله: (دين الملك)، ولذا فإن الذين يُشرّعون القوانين المخالفة لشرع الله فهم في الحقيقة يُشرّعون دينًا جديدًا للناس، من دخل فيه كان داخلاً في دين الملك، ومن خرج عنه كان خارجًا عن دين الملك.(١)

- ونضيف بأن الله سبحانه نفى الإيمان عمن لم يتحاكم إلى الشرع المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال سبحانه: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥] فهذا قسمٌ من الله تعالى بأعظم القسم حيث أقسم سبحانه بنفسه {فَلَا وَرَبِّكَ} على نفي الإيمان حتى يتم التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما شجر بين الناس من خصومات أو أحكام.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في (فتح المجيد): "فمن خالف ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه .."(٢) والله سبحانه ذكر أن المؤمنين لهم قول واحد وحال واحد عند صدور الحكم من الله ورسوله، وهو (السمع والطاعة) كما قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور:٥١] إذن فالمؤمنون لهم قول واحد متى دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم وهو (سمعنا وأطعنا) فالتسليم والانقياد لحكم الله ورسوله هو حال المؤمنين، بينما المنافقون حالهم هو الصد والإعراض عن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى في شأنهم: {.. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أنزل اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ..} [النساء:٦٠-٦٢]

- وقال تعالى أيضًا في شأن المنافقين: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وإِنْ يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [النور:٤٧-٥٠]، فهنا ذكر تعالى حال المنافقين وأنهم يعلنون عن إيمانهم في الظاهر، ولكنهم يتولون بعد ذلك عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، أما إذا كان لهم الحق فإنهم يأتون مسرعين مذعنين ثم يستنكر عليهم {أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} أي: نفاق؟ {أَمِ ارْتَابُوا} وشكّوا؟ {أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ} أي: يظلمهم؟ بل في الحقيقة {أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} قال العلامة ابن كثير -رحمه الله- تعقيبًا على الآيات: "يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبَطِنُونَ، يَقُولُونَ قَوْلاً بِأَلْسِنَتِهِمْ: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أَيْ: يُخَالِفُونَ أَقْوَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}. وَقَوْلُهُ: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ} أَيْ: إِذَا طُلِبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى، فِيمَا أنزل اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ

(١) يمكن مراجعة آيات سورة يوسف كاملة من آية:٦٩ إلى آية:٧٦.

(٢) (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد) ص٣٦٥.

وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} [النِّساء:٦٠-٦١]. وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ رَوْحِ بْنِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ مَرْفُوعًا: "مَنْ دُعِي إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ، فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ". وَقَوْلُهُ: {وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ}، أَيْ: وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ، جَاؤُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {مُذْعِنِينَ} وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُرَوِّجَ بَاطِلَهُ، فَإِذْعَانُهُ أَوَّلاً لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ، عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ} يَعْنِي: لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَض لَازِمٌ لَهَا، أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ. **<u>وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ</u>**، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلٍّ مِنْهُمْ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مُنْطَوٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ".

ثم قال ابن كثير -رحمه الله-: "ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، الَّذِينَ لَا يَبْغُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَقَالَ: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} أَيْ: سَمْعًا وَطَاعَةً"(١).

- وقال الشيخ ابن تيمية -رحمه الله- (تعليقًا على نفس الآيات عن المنافقين): " نفى الإيمان -أي: نفى الله الإيمان- عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبيَّن أن هذا من لوازم الإيمان"(٢).

- **إذن نجمل ما سبق بالآتي:**

١- من صفات المنافقين أنهم يقولون ما لا يفعلون وتخالف أعمالُهم أقوالَهم.

٢- من تولى عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يحدث عنده انقيادٌ له ولأوامره ففيه صفة من صفات المنافقين الأساسية.

٣- المنافقون يعرضون عن حكم الله ورسوله ولا يريدون التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان لهم الحق وسيُقضى لهم به. أما إذا كان الحق عليهم فلا يريدون التحاكم إلى الله ورسوله حتى لا يُقضى عليهم.

٤- من لم يرد التحاكم إلى الله ورسوله فعنده مرض النفاق الأكبر المخرج من ملة الإسلام وقد مر بك قوله تعالى استنكارًا عليهم: {أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، وقول ابن كثير -رحمه الله- تعليقًا عليه: "وأيًا ما كان فهو كفر محض".

٥- المؤمنون يتحاكمون إلى الكتاب والسنة ولا يتحاكمون لغيرهما؛ لأنهم يردُّون إلى الله ورسوله.

٦- المؤمنون لهم قول واحد إذا دُعوا إلى الله ورسوله وهو (سمعنا وأطعنا) فلا إباء أو استكبار ولا إعراض أو تولي. بل (سمعٌ وطاعة).

---

(١) تفسير ابن كثير (سورة النور:٤٧-٥١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/٢٢١).

• **تلخيص ما سبق في هذه المسألة:** -وهي أن (من خصائص المولى سبحانه التشريع والحكم والتحريم والتحليل)، وأن هذا هو (الركن الثاني في إفراد المولى سبحانه بالألوهية)-:

١- الحكم من خصائص الله سبحانه كما قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ} [يوسف:٤٠]، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»(١).

٢- من نازع الله تعالى في التشريع والحكم والتحليل والتحريم فهو طاغوت كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} فكل من يتحاكم إليه الناس غير الله ورسوله فهو (طاغوت) أي: طغى على حق الله تعالى {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} والله سبحانه أمر الناس بالكفر به {وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} والتحاكم إليه ضلال بعيد واتباع للشيطان {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا}.

٣- كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر؛ سواء كان حاكمًا أو قاضيًا كما قال تعالى: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزل اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤]

٤- الحكم بغير حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من (خصائص الجاهلية) كما قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة:٥٠] فهناك حكم الله، وهناك حكم الجاهلية، وهو كل ما خالف شرعه سبحانه.

٥- تحريم الحلال واستحلال الحرام كفرٌ، وهو من أسباب كفر أهل الجاهلية، واستحلال الحرام أو جحد الأحكام الثابتة كفر بالنص والإجماع، كما قال تعالى عن الكافرين واستحلالهم القتال في الأشهر الحرم: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة:٣٧]، معنى الآية: يذكر تعالى أن النسيء (وهو التلاعب في الأشهر الحرم حيث كان أهل الجاهلية يحتاجون أحيانًا للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، فحتى يوفقوا بين تحريم القتال في الأشهر الحرم وبين تحقيق أغراضهم رأوا بآرائهم الفاسدة أن يحرموا أربعة أشهر في السنة، سواء كانت في الأشهر الحرم أو غيرها، فيجعلون مثلاً شهر صفر هو المحرم فيحرمون فيه القتال بدلاً من شهر الله المحرم، فإذا استبدلوا شهرًا آخر غير المحرم كان هذا هو النسيء، وأصله من التأجيل، فكانت هذه من بدعهم الباطلة، وسمّاه الله عز وجل (زيادة في الكفر) أي هم كفّار ابتداءً والنسيء الذي ابتدعوه زيادة في الكفر، حيث إنهم استحلوا القتال في الأشهر الحرم فكانوا كفارًا بذلك الاستحلال للحرام، وكانوا كفارًا أيضًا لأنهم ابتدعوا في دين الله ما ليس منه وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه. فذكر الله عز وجل هذا النسيء وأنه زيادة في كفرهم كما سبق في الآيات؛ ودل هذا على الآتي:

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني.

أ- استحلال الحرام المقطوع بتحريمه كفرٌ، وعلى هذا إجماع العلماء من المسلمين، كما قال الطحاوي -رحمه الله-: "ولا نكفر مسلمًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"[1] وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن الله تعالى أنه قال: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ»[2].

ب- أن تشريع ما لم يأذن به اللهُ وإلزام الناس به كفر أكبر لأنه منازعة لله عز وجل في خصائصه، كما يحدث من اللجنة التشريعية في مجلس الشعب (البرلمان) حيث يسنون قوانين ملزمة للناس ومخالفة للشريعة، فهؤلاء نازعوا الله عز وجل في ألوهيته وجعلوا مردَّ التشريع والتحليل والتحريم إلى أنفسهم لا إلى شرع الله عز وجل.

٦- المسلم لا يَرُدُّ التحاكم إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} [النساء:٥٩] فمن لم يرد إلى حكم الله ورسوله فليس مؤمنًا بالله واليوم الآخر وكما قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى:١٠].

٧- الطاعة في استحلال الحرام أو تحريم الحلال كفرٌ، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا} [التوبة:٣١] فكما رأينا في حديث عدي بن حاتم عندما كان نصرانيًا ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه يقرأ هذه الآية، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ"؛ لأنه ظن أن العبادة قاصرة على الصلاة والصيام والزكاة ونحو ذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، قال عدي: بلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[3]، فهنا بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن معنى عبادة الأحبار والرهبان أي طاعتهم في التحليل والتحريم بغير ما شرع الله سبحانه، ولذا فنحن يجب أن نعلم أن العلماء هم نقلة الشريعة وهم الذين يُفهِّمونها للناس فليس المطلوب اتباعهم لذاتهم، وإذا ثبت عندنا مخالفتهم لنص شرعي فلا يجوز لنا اتباع رأيهم وإنما يجب اتباع النص الشرعي.

- **إجمال ما سبق:**

١- أن معنى لا إله إلا الله إفراد الله سبحانه بالتشريع والتحليل والتحريم وأن الشرك بالله ليس قاصرًا على توجيه عبادة لغير الله بل يكون أيضًا بتحريم الحلال أو تحريم الحلال أو تشريع ما لم يأذن به الله كما قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشور:٢١].

٢- وأن كل من يُشرِّع من دون الله فهو طاغوت منازع لله عز وجل في ألوهيته، وأن المسلم يجب عليه أن يرد كل تحاكمه إلى القرآن والسنة، وأنه لا يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة إلا المنافقون نفاقًا أكبر مخرجًا من الإسلام.

---

(١) العقيدة الطحاوية (٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن جرير والطبراني بإسناد حسن.

- **ملحقات هامة:**

إزاء ما سبق ذكره يجب على المسلم أن يعلم أنه يعيش في زمن غربة الإسلام، وأن عامة القوانين التي تحكم العالم الإسلامي قوانين كافرة مأخوذة من القانون الفرنسي أو الإنجليزي أو السويسري أو العرف أو الأهواء والمصالح، ولذا يجب على المسلم أن يعلم بعض الأشياء المخالفة للإسلام ولكنها فرضت نفسها على الأمة الإسلامية جمعاء حتى تجعل كل الناس يدورون في فلك الطواغيت وشريعتهم، وهي:

١- **العلمانية**: وهي فكرة غربية في الأصل، ومعناها الحرفي (اللادينية) وتعني اصطلاحًا (فصل الدين عن الدولة) فتكون الدولة غير مقيدة بأحكام الدين في سياستها أو تشريعها أو نظمها أو أحكامها ..إلى غير ذلك من خصائص الدولة أو شئونها المختلفة، ويكون الدين قابعًا داخل المساجد أو أماكن العبادات فقط. ليس له سلطان على الدولة أو ما يجري فيها، وهذه الفكرة مأخوذة في الأصل من النصرانية التي تقول: (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) ثم تأصلت هذه الفكرة بعد ظهور الثورة الفرنسية التي أرادت أن تحجم سلطان الكنيسة الطاغية والتي تحالفت مع حكم الملوك الظالمين، فقررت الثورة الفرنسية تحجيم الكنيسة وسلطانها داخل جدران الكنيسة وأعلنت مبدأ النظام اللاديني، أي: الذي لا يلتزم بأحكام الدين أو ضوابطه، وأن تكون سلطة الكنيسة سلطة روحية فقط لا علاقة لها بشئون الدولة من قريب أو بعيد، وتكون هذه السلطة الدينية داخل جدران الكنيسة، وهذا المبدأ يمكن أن يتوافق مع دول أوربا الكافرة لأن الديانة المسيحية لا تحتوي على تشريعات مثل الإسلام. فالإسلام يشمل الحدود ويضع تشريعات كثيرة كالميراث وأحكامه وتحريم الربا وتفصيلات ذلك، ويحدد البيوع المحرمة والمعاملات المباحة والمحرمة، والزواج ومتعلقاته ويحرم التبني والظهار، ويضع شروطًا للحاكم والقاضي، وضوابط للحاكم ومهامه مع شعبه من جهة ومع الدول الأخرى من جهة، ويضع علاقة معينة مع غير المسلمين –كاليهود والنصارى– داخل الدولة الإسلامية، ويضع ضوابط وأحكامًا للحرب والسلام والهدنة وغير ذلك، ويحرم الخمر والخنزير والميتة والدم وأكل السباع والجوارح... وهكذا نجد الإسلام شريعة متكاملة لكل شئون الحياة، ولإصلاح المجتمع والحاكم والدول والمجتمعات. كل هذه الأحكام موجودة في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إجماع الفقهاء الإسلاميين ..إلخ المصادر التشريعية، ولذا فإن الله سبحانه يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بصفته أول حاكم للمسلمين فيقول الله عز وجل له: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ} [المائدة:٤٩]، إذن مهمة الحاكم المسلم أن يحكم بما أنزل الله {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزل اللّهُ}، بل عليه أن يحذِّر من أهواء الناس المخالفة للشريعة لأن الناس كثيرًا ما تقودهم شهواتهم ومصالحهم الشخصية إلى مخالفة شرع الله، ومن هنا فلا يصح القول بوجود مبدأ (العلمانية) أو (اللادينية) في الإسلام أو المجتمع الإسلامي لأن الإسلام به تشريعات وأحكام وحدود يجب تطبيقها، ومهمة الحاكم في الإسلام هي (تطبيق شرع الله سبحانه)، وكان هذا معمولاً به منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم لفترات كبيرة طيلة عدة قرون، وإن حدث تقصير في بعض الأحيان، ولكن كان الرد إلى شرع الله دائمًا، وكان رأي الدين يحكم على كل شيء حتى على الحاكم نفسه.

ولكن لما ضعفت الخلافة العثمانية التي كانت تهيمن على معظم البلاد العربية وضعفت عامة الدول الإسلامية، واستطاعت أوربا بجيوشها وأسلحتها الحديثة أن تحتل عامة العالم الإسلامي لعشرات السنوات، وبعض البلاد احتلتها الدول الأوربية حوالي قرنين من الزمان، فكانت النتيجة أن الدول الأوربية المحتلة أقنعت الكثير من أبناء البلاد الإسلامية بأن سبب ضعفهم وتخلفهم هو الدين الإسلامي، وأن الحل الوحيد لتقدمهم هو الفصل التام بين الدين والدولة –تمامًا كما فعلت أوربا– وأن تكون سلطة الدين داخل المسجد، وتكون سلطة روحية لا علاقة لها بنظام الحكم أو شئون الدولة؛ يعني يتم تطبيق نفس الصورة التي اتبعتها أوربا في نظام الحكم وهو مبدأ (اللادينية) أو (العلمانية) أي (فصل الدين عن الدولة)، ونظرًا لأن الاستعمار الأوربي كان يحكم معظم العالم الإسلامي ونظرًا لوجود انبهار بالغرب لدى الكثيرين من أبناء الدول الإسلامية، بل أضف لذلك قيام الصحف والإعلام والإذاعات بصياغة عقول الناس على هذه الفكرة الكافرة، فضلاً عن وضع النظم التعليمية على نفس النمط بحيث يشب الطفل منذ نعومة أظافره على هذه الفكرة، بالإضافة إلى وجود عملاء مباشرين لأوربا قاموا بالمناداة بإلغاء الخلافة الإسلامية، وقام آخرون بتأسيس الأحزاب العلمانية، وتمت صياغة كل نظم الدول لتشجيع هذه الخطوات وإبرازها حتى انساقت جموع الجماهير الغافلة تردد هذه الفكرة وهذه المعاني دون أن يدروا بأنهم ينشرون فكرة كافرة، وينصرون نظمًا مخالفة للإسلام، وهكذا حتى صار العرف العام لدى الناس، ولدى الحكام العملاء هو مبدأ (فصل الدين عن الدولة) أو (العلمانية) أو (لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة) ..إلخ، وأصبحت رابطة التجمع على الدولة أو الوطن وليس على دين الله، وأصبح الجهاد في سبيل الوطن أو النظام الحاكم وليس في سبيل الله، وأصبحت الأخوة في الوطن وليست على الدين، ولذا أصبحنا نسمع عن مبدأ (المواطنة) ونسمع شعار (الدين لله والوطن للجميع) وأصبح البعض ينادي بإلغاء خانة الديانة في البطاقة، والاكتفاء بذكر الجنسية، والبعض الآخر ينادي بإباحة زواج النصراني من مسلمة بدعوى أن كليهما مصري، وإذا كانت المصرية تتزوج من سعودي أو أجنبي لأجل أنه مسلم فابن البلد النصراني أولى بذلك!! فضلاً عن تنحية الحكم بالشريعة الإسلامية في كل المجالات؛ فلا حدود إسلامية على الزنا أو السرقة أو شرب الخمر أو الردة أو غير ذلك، ومن أراد أن يبيع الخمر فيكفيه الحصول على ترخيص بذلك –رغم حرمة الخمر–، ومن حق كل الفنادق والأماكن السياحية تقديم الخمور وتسهيل الدعارة، ومن حق البنوك التعامل بالربا ومن حق الإعلام نشر الزنا والفواحش والاستهزاء بالدين ..إلخ، يعني سلخ الدين عن أكثر أحكامه، ويصبح مجرد أشياء محدودة جدًا في نطاق ضيق وداخل المسجد، بل وليس من حق خطيب المسجد التكلم عن شئون الدولة حتى لا يتعدى حدوده ويصبح متطرفًا!!

هكذا انتشر مبدأ العلمانية داخل بلاد المسلمين، وأصبحت النظم الحاكمة جميعها تنص على أنها نظم علمانية، والبعض يسميها نظم (مدنية)، وهكذا تم إلغاء أكثر شرع الله سبحانه، ومن ينادي بتحكيم الشرع فمصيره السجن وعلى أحسن الأحوال يُقال عنه: متطرف أو إرهابي ..إلى غير ذلك من التهم الباطلة والتي تُلبّس الأحكام على الناس، وفي عام ١٩٢٤م قام المجرم كمال أتاتورك –وأصله من يهود الدونمة الأتراك– بإلغاء الخلافة الإسلامية، وإلغاء الأذان باللغة العربية، وإلغاء الحجاب، وإلغاء القوانين الإسلامية كاملة، وانتشرت هذه الأفكار الشيطانية في العالم الإسلامي انتشار النار في الهشيم، حتى عاد الإسلام غريبًا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا،

وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[1]، وأصبح المسلم الحق والمسلمة القائمة بأمر الله خائفين من الدعوة إلى دين الله كما أراد الله، بل خائفين من إظهار الالتزام بالدين، خوفًا من بطش الحكام وأعوانهم، فكانت النتيجة أنْ حَكَمَ الكفر، وسكت العلماء ولبَّس بعضهم على الناس، واضُطهد أهل الحق، ونمى الباطل وانكمش الحق ومن أراد أن يدعو للشيوعية أو ينتقد الدين وأهله أو ينشر الفواحش أو يدعو لأي أفكار كفرية فحرية الرأي والفكر مكفولة للجميع، وأما من أراد نشر الحق والدعوة إلى تحكيم الإسلام فلا بد من سحق التطرف والإرهاب والقضاء عليه وعلى أهله. هذه بعض ثمار العلمانية الخبيثة التي باتت تحكم بلاد المسلمين ولها الكلمة العليا على البلاد؛ ثم ننبه إلى بعض المتعلقات البسيطة المتعلقة بها:

أ- لما ظهرت (العلمانية) كمبدأ في الغرب على يد الثورة الفرنسية كان معناها الحرفي هو اللادينية أو فصل الدين عن الدولة، ولكن عندما تُرجمت هذه الكلمة إلى اللغة العربية كان أصلها الفرنسي هو (Secularite) أو (Secularism) أي: اللادينية، ولكن قام رجل نصراني لبناني بنقلها إلى اللغة العربية بترجمة (العلمانية) بحيث يتقبل المسلمون هذا المعنى ظنًا منهم أنه يرجع إلى العلم، وليس إلى مبدأ إبعاد الدين عن نظم الحكم ونظم الحياة، وبالفعل شاع هذا المصطلح حتى أصبح يستخدم دون نكير أو استنكار في عامة الدول الإسلامية وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ب- ما حكم الإسلام في (العلمانية) السابقة الذكر؟ الجواب: أن العلمانية مبدأ كافر، ونظام كفر، ومن اعتقده أو دعا إليه أو التزمه كان كافرًا؛ لأنه ببساطة يعني رد المئات من آيات القرآن الكريم ورد المئات من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وربما الآلاف، ورد آلاف الأحكام الشرعية لأن هذا المبدأ الكافر -كما رأينا- يقوم على تحجيم الإسلام داخل إطار ضيق جدًا يشمل بعض العبادات والشعائر والأخلاق. أما أن تحكم الحدود الشرعية ويحكم الإسلام على الاقتصاد والإعلام ويضع الأحكام الشرعية والضوابط الإسلامية على شئون الحياة المختلفة فهذا مرفوض وفقًا لمبدأ العلمانية.

ونلفت النظر إلى أنه لما قام أتاتورك بإعلان إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٤٢م وكان الإنجليز يحكمون مصر وقتها من خلال الاحتلال العسكري فحدث أن قام قاضي شرعي مأجور للإنجليز اسمه (علي عبد الرازق) بكتابة كتاب بعنوان (الإسلام وأصول الحكم) ذكر فيه أن (الخلافة) بدعة ووهم وليس عليها دليل شرعي، وأن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الدعوة إلى الله فقط وليس الحكم، وأن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من الجهاد وفتح جزيرة العرب والحكم بالأحكام الإسلامية لم يكن من الدين في شيء، وإنما كان في سبيل الحكم الدنيوي وتكوين ملك شخصي لنفسه ليس أكثر ..إلخ مزاعمه الكافرة، ولما كان الاحتلال الإنجليزي يحكم مصر وقتها فقد انتهز علماء الأزهر -آنذاك- فرصة غياب المندوب السامي البريطاني وقاموا بمحاكمة (علي عبد الرازق) المذكور وجرّدوه من شهادة (العالمية الأزهرية) التي حصل عليها، هذا هو ما تمكن الأزهر من فعله آنذاك.

(١) رواه مسلم (١٤٥).

وقام مفتي الديار وقتها، وهو (الشيخ محمد بخيت) بكتابة كتاب كبير في الرد على المجرم المذكور، وبيَّن في رده أن ما ذكره (علي عبد الرازق) هو ردة عن الإسلام وأن ما يدعو إليه إنكار لمئات الآيات والأحاديث النبوية وإجماع العلماء، ورفض لمعظم أحكام الإسلام، ولكن للأسف الشديد تعلم الحكام الدرس ومارسوا الضغوط على العلماء، واختاروا منهم بعناية شخصيات مأجورة كل مهمتها الدفاع عن الحكام وإصدار الفتاوى التي تُسوِّغ لهم باطلهم، وإضفاء الشرعية على كل ما يخالف الإسلام حتى وصل الحال إلى استعداد شيخ الأزهر الأخير (محمد سيد طنطاوي) بإقناع وفاء قسطنطين بالعودة إلى النصرانية وذلك حفاظًا على الوحدة الوطنية!! ثم قيامه بإصدار الأمر للشيخ فوزي الزفزاف بالموافقة على وثيقة تكفل للنصارى الحق بالتبشير لباطلهم ورد المسلمين عن دينهم(1)، وما ذكرناه هو قطرة من بحر، ومثال من آلاف الأمثلة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ونأسف للقارئ على هذه الإطالة ولكن لأهميتها أطلنا فيها، ويمكن لمن أراد التوسع أن يراجع كتاب (مذاهب فكرية معاصرة) لمحمد قطب، و(مفاهيم فكرية معاصرة) لعلي جريشة، و(العلمانية وأثرها في العالم الإسلامي) لسفر الحوالي.

٢- **الديمقراطية:**

- ما هي الديمقراطية؟

الديمقراطية هي نظام يوناني قديم من أنظمة الحكم، ويعني: حكم الشعب للشعب عن طريق النواب الذين تختارهم جموع الشعب كنائبين عنهم، وهو ما يُسمى حاليًا بـ(مجلس الشعب) أو (البرلمان) وهنا قد يقول قائل وما العيب في ذلك؟ وهل في ذلك مخالفة للإسلام في شيء؟!

ونحن نقول بعون الله: أن الإسلام يُقرّ أن يكون للناس مندوبين عنهم أو نوّاب يرفعون مشاكلهم لولاة الأمور ويُقرّ الإسلام أيضًا مبدأ الشورى كما قال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشورى:٣٨] وقد حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استشار الناس، واستشار الخلفاء الراشدون من بعده، وتكلم العلماء في كتب (السياسة الشرعية) عن (أهل الحل والعقد) ولكن هناك اختلاف جذري بين الشورى في الإسلام وبين الديمقراطية، فالديمقراطية تجعل مردّ الأحكام النهائي إلى نوّاب الشعب حتى لو تعارض مع شرع الله سبحانه، بل إن من حق نوّاب الشعب (عندهم) إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية لو كان قائمًا فإن النظام الديمقراطي يعتبر أن الرد النهائي في التشريع لنوّاب الشعب ولا يعتبر أن شرع الله يحكم بذاته، أما (الشورى) في الإسلام فإنها لا تُلغي نصًا شرعيًا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنها تأخذ بالآراء فيما ليس فيه نص أو إجماع.

أما شرع الله سبحانه وتعالى فليس لأحد أن يتقدم عليه برأي لا الشعب ولا النوّاب ولا الحاكم نفسه، فالمشروعية العليا للشرع الإسلامي باعتبار أننا عبيد لله سبحانه وتعالى ومؤمنون بشرعه، وتنفيذًا لأمر الله سبحانه: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة:٤٩].

(١) كل هذا على صفحات الجرائد الرسمية الحكومية، راجع جريدة الجمهورية بتاريخ ١١، ١٧، ١٨/٤/٢٠٠٦م.

إذن فإن مهمة الحاكم في الإسلام هي الحكم بما أنزل الله كما أمر الله عز وجل في هذه الآية نبيه صلى الله عليه وسلم بصفته أول حاكمٍ للمسلمين، وأما إذا لم يحكم الحاكم بما شرعه الله سبحانه فهو كافر كما قال تعالى: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة:٤٤].

وقد سبق ذكر الأدلة التي تبيّن كفر من حكم بغير شرع الله سبحانه أو وضع تشريعًا جديدًا خلاف شرع الله سبحانه.

إذن الشورى في الإسلام تأتي في الأمور التي ليس فيها نص شرعي فلا تخالف كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماع العلماء الثابت.

أما الديمقراطية فلا تلتزم بشيء معين، فإذا وافق نوّاب الشعب على أي قانون أو تشريع فإنه يكون ملزمًا للشعب كله حتى لو كان يخالف شرع الله سبحانه وتعالى تمامًا.

إذن في الإسلام تكون المشروعية العليا في الأحكام لكتاب الله وسنة رسوله –عليه السلام– فإذا عارض شيء القرآن والسنة فإنه يُردّ ويكون باطلاً. وأما في الديمقراطية فإن المشروعية العليا تكون لنواب الشعب وليس لشرع الله، بل لو طالب أحدٌ بتطبيق شرع الله سبحانه فإنهم يجعلون مردّ الأمر إلى (مجلس الشعب)، فلو وافق مجلس الشعب على تطبيق الشريعة فإنهم ينظرون في إمكانية تطبيقها، وأما لو رفضوا فإنهم لا يوافقون على تطبيق الشريعة؛ فهم جعلوا مجلس الشعب سلطة أعلى من دين الله سبحانه هي التي تأذن له أن يحكم أو لا يحكم ولنضرب مثالاً بسيطًا:

فقد جرى حوار مع الدكتور أسامة الباز المستشار السياسي لرئيس الجمهورية المخلوع في مجلة الأهرام العربي بتاريخ (٢٠٠٤/١/١٧) وكان الحوار كالآتي:–

"س: لكن السؤال دكتور أسامة هل الإفراج عن الجماعات الإسلامية أخيرًا هو تعبير عن المصالحة بين النظام والجماعات الإسلامية؟

ج: لا ..لا، الأمر لا يمكن النظر إليه من باب المصالحة، ودعني هنا أشير إلى أنه ليس هناك قبول لفكرة تأسيس تنظيمات سياسية من منطلقات دينية لعدة أسباب:

أولها: أن هناك جزءًا من سكان مصر يُعتد به ينتمون للديانة المسيحية، وثانيها: أن بعض الجماعات الإسلامية ومنهم الإخوان المسلمون يرون أن الله هو مصدر السلطات وليس الأمة، وهم يرفضون فكرة الدستور الوضعي استنادًا إلى أن هناك دستورًا إلهيًا، وبالتالي ليس ثمة حاجة إلى الدستور الوضعي وفق منظورهم، ومن هنا سيكون من الغريب أن يتم التعامل سياسيًا مع مجموعات ترفض المنطلقات الأساسية للعمل السياسي، وفي ضوء ذلك فإن مصر لا تسمح بإقامة أحزاب على أساس ديني" ا.هـ.

إذن يؤخذ من كلام هذا الرجل العلماني –صاحب المنصب المرموق في النظام الحاكم البائد– الآتي:

١– صرح المذكور بأن الجماعات الإسلامية تؤمن بأن الله هو مصدر السلطات وليس الأمة.

٢– بينما هو وأمثاله من العلمانيين يؤمنون بأن الأمة هي مصدر السلطات وليس الله سبحانه.

٣– المنطلق الأساسي للعمل السياسي هو الإقرار بأن الأمة مصدر السلطات وليس الله سبحانه والشريعة الإسلامية.

- إذن على وفق ما سبق فإن النظام الديمقراطي يجعل (مجلس الشعب) أو (مجلس النواب المذكور) آلهة يشرِّعون من دون الله، ولذا فإنهم يسمون (مجلس الشعب) بـ(السلطة التشريعية).

ومن هنا فإن فكرة الديمقراطية فكرة كافرة لأنها تجعل مرد التشريع إلى نواب الشعب وليس لله سبحانه أو شريعته عز وجل، ومن خلال الديمقراطية المزعومة فإن نواب الشعب يكونون كالأحبار والرهبان الذين كانوا يشرعون لليهود والنصارى فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، فسمّاهم الله سبحانه بذلك آلهة كما سبق أن ذكرنا قوله وتعالى عنهم: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} [التوبة:٣١] وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بأنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم "فتلك عبادتهم إياهم"، كما سبق ذكر الآية والحديث المُفسِّر لها.

- بل نضيف –في عجالة– أن مجلس الشعب في مصر والقانون المعمول به يفيد الآتي:

- إباحة ممارسة الزنا لكل بالغ وبالغة ما دام لم يحدث إكراه من أحد الطرفين ولم يحدث كسب على الزنا (أي دخل الدعارة)، ويبيح ممارسة عمل قوم لوط ما دام لم يحدث إكراه من أحد الطرفين، ويبيح بيع الخمر في الفنادق وكل الأماكن السياحية، ويبيح التعامل بالربا، ولا يعاقب على الزنا أو شرب الخمر أو لعب القمار بأي عقوبة شرعية ولا توجد عقوبة على الردة عن الإسلام، بل يقدم الحفاظ على الوحدة الوطنية على الحفاظ على الإسلام كما في القانون رقم ٣٤ لسنة ١٩٧٢، إلى غير ذلك من أمور كثيرة كافرة مخالفة لدين الله تمامًا، ولو أردنا الاستقصاء لطال بنا المقام.
- ففي المقابل وجدنا في الجزائر أن البرلمان والحكومة وافقوا على إلغاء تدريس مادة الدين من مناهج التعليم كمزيد من الاتجاه للعلمانية ومحاربة الإسلام (بتاريخ ٢٦يونيو ٢٠٠٥).
- بينما في أسبانيا وافق معظم أعضاء البرلمان الأسباني على قانون الزواج المثلي وإباحة التبني لهذا الزواج –يعني زواج الرجل من الرجل والمرأة من المرأة– وهذه الموافقة من (نواب الشعب) يترتب عليها إصدار قانون بإباحة ذلك رسميًا، وقد علق على هذا الأمر رئيس الوزراء الأسباني (خوسيه ثباتيرو) بـ: "أن ذلك خطوة جديدة على انتصار الحرية" وتكون بذلك أسبانيا هي ثالث دولة تبيح الزواج المثلي وتبني الشواذ!![1]

بينما في السودان وافق مجلس الأمة على أن النائب الأول لرئيس الجمهورية نصراني –أعني جون جارانج الهالك– ... وهكذا لو تتبعنا هذا الأمر لطال بنا المقام.

والمقصود في النهاية أن فكرة الديمقراطية فكرة كافرة لأنها تقوم على تأليه نواب الشعب وذلك بإعطائهم حق الله تعالى من التشريع والتحليل والتحريم وجعل مرد التشريع لهم وليس لله سبحانه وشرعه المُطهر.

وهذه الديمقراطية يتغنى بها الحكام والصحفيون والكتاب والكثيرون على أنها (عقيدة الأمة) كما قال الرئيس المخلوع حسني مبارك: "إن الديمقراطية هي عقيدة المواطن التي يجب ترسيخها بين الجماهير".

ونحن نقول هي عقيدة كافرة مخالفة لشرع الله سبحانه. أما من يقولون إن الديمقراطية هي أمثل نظام، فالرد عليهم طويل لأن معظم نواب الشعب هم أصحاب رؤوس الأموال وأصحاب النفوذ في أغلب الأحيان فهم لا يعبرون عن

(١) كان ذلك في عام ٢٠٠٦م.

رأي الشعب في أكثر الأحيان، ولكن لقدراتهم المالية ونفوذهم الكبير وصلوا إلى هذه الأماكن الحساسة وعلى العموم نحن عقّبنا في السطور السابقة على (مفهوم الديمقراطية) من الناحية الشرعية فقط.

- بعد أن عرفنا أن (التشريع والتحليل والتحريم) هو حق الله سبحانه، وأن من نازعه في ذلك فهو طاغوت من الطواغيت يجب الكفر به، واعتقاد أن التشريع والتحليل والتحريم لله وحده {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} [يوسف:٤٠]، فمن هنا يبقي معنا أمر هام، وهو: ما هو المطلوب من كل مسلم ومسلمة تجاه هذا الحق الإلهي، وتجاه الشرك الذي وقع فيه معظم البشر؟

- **المطلوب هو الآتي بعون الله تعالى:**

١- **أن يعتقد المسلم أن التشريع والتحليل والتحريم حقٌ لله سبحانه،** والنبي صلى الله عليه وسلم مُبلِّغٌ عن الله تعالى كما قال عز وجل: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ} [النساء:٦٤]، وكما قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر:٧]، وكما قال تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} [النساء:٨٠].

٢- **أن يعتقد المسلم أن كل من نازع الله عز وجل في التشريع والتحليل والتحريم فهو طاغوت يجب أن يُكفر به،** كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [النساء:٦٠] فتأمل الآيات {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} لأنه طغى على حق الله في الحكم {وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} فقد أمرنا الله سبحانه بالكفر بذلك الطاغوت.

وكما سبق أن ذكرنا قوله تعالى {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ} وقوله عن اليهود والنصارى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا} [التوبة:٣١] وقد فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم اتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله بأنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، وذكرنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»[1]، وغير ذلك عديد؛ والمقصود أن المسلم والمسلمة مطلوب منهما أن يكفروا بهذه الطواغيت المنازعة لله في خصائصه كما قال عز وجل {وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} فأمرنا الله بالكفر بهذه الطواغيت.

٣- **أن يقاطع المسلم ما يُسمى بانتخابات مجلس الشعب،** ويحذِّر الناس منها ما أمكن، لأن المجلس المذكور هو (مجلس الشُركاء) ومجلس التشريع من دون الله، وقد صدق فيهم قول الله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى:٢١] فسمّاهم سبحانه وتعالى شركاء.

٤- **أن يقاطع المسلمون جميعًا –رجالاً ونساء– مهنة القضاء وما تعلق بها،** لأن كل القوانين المعمول بها مخالفة للشريعة الإسلامية (ما عدا قوانين الأحوال الشخصية وقوانين الميراث فبعضها موافق للشريعة) وما سوى ذلك فمخالف لشرع الله سبحانه، وما دامت القوانين مخالفة لشرع الله سبحانه فلا يجوز تولي القضاء في ظل ذلك أو

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني.

التعامل بها لأن هذا إقرار لهذه القوانين الكافرة من جهة، وإعانة على تثبيتها من جهة أخرى، والله سبحانه نهى عن ذلك كما قال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢]، بل إنه ما زاد الأمر تعقيدًا إقبال الناس على دخول كليات الحقوق والعمل بالقضاء فتعلقت أرزاق الناس به، وتعلقت أعمالهم ومعايشهم بهذا الكفر، وهنا يجدر بنا أن ننقل كلام الشيخ العلامة أحمد شاكر وهو يعلق على كلام المفسر ابن كثير عندما وصف (الياسق) فقال عنه: "(الياسق) وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قد اقتبسها من شَرَائِعَ شَتَّى: مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الإسلامية وغيرها، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الأحكام أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نظره وهواه، فصارت في بينه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فَلَا يحكم سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ" وهنا قال الشيخ أحمد شاكر: "أقول: أفيجوز —مع هذا– في شرع الله أن يُحكَم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيّرونه ويبدّلونه كما يشاؤون لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟ إن المسلمين لم يُبلوا بهذا قط –فيما نعلم من تاريخهم– إلا في ذلك العهد، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار ثم مزجهم وأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وبما أن الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك لم يندمج فيه أحدٌ من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه، ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره. أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير –في القرن الثامن– لذاك القانون الوضعي الذي صنعه عدو الإسلام جنكزخان؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ إلا في فرق واحد أشرنا إليه آنفًا: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام أتى عليها الزمن سريعًا فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت، ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشد ظلمًا وظلامًا منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة والتي هي أشبه شيء بذلك (الياسق) الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر. هذه القوانين التي يصطنعها ناسٌ ينتسبون للإسلام[1]، ثم يتعلمها أبناء المسلمين[2] ويفخرون بذلك آباءً وأبناءً، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويُحقِّرون من يخالفهم في ذلك، ويسمّون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعيًا) و(جامدًا) إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة. بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي يريدون تحويله إلى (ياسقهم) الجديد بالهوينا واللين تارةً، وبالمكر والخديعة تارةً، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات، ويصرحون ولا يستحيون بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين! أفيجوز إذن –مع هذا– لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعني التشريع الجديد؟ أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا (الياسق العصري) وأن يعمل به، ويُعرض عن شريعته البينة؟ ما أظن أن رجلاً مسلمًا يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابًا محكمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به

---

(١) أي ينتسبون اسمًا للإسلام، مع كون حقيقتهم الكفر والردة عن الإسلام.

(٢) أي يتعلمونها من خلال كليات الحقوق.

واجبة قطعية الوجوب في كل حال، ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلانًا أصليًا لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة. إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس. هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام -كائنًا من كان- في العمل بها، أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤٌ لنفسه، وكل امرئٍ حسيب نفسه"(١).

٥- **بغضهم**: أي بغض كل من وقع في كفر -سواء الحكام أو أعضاء اللجان التشريعية أو أعضاء مجلس الشعب أو القضاء أو المحامون الذين يقرون هذه القوانين الكافرة- وهذا البغض واجب لقوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ..} [الممتحنة:٤]، أي أن لنا أسوة حسنة في إبراهيم -عليه السلام- ومعه جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في قولهم لقومهم: إنا تبرأنا منكم ومما تعبدون من دون الله، فأعلنوا البراءة من قومهم، ولقد كفرنا بكم وبما أنتم عليه من كفر، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا ما دمتم على الكفر حتى تؤمنوا بالله وحده، فيجب علينا التأسي بهم عليهم السلام في العداوة والبغضاء مع كل الكفار حتى يؤمنوا بالله وحده. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»(٢).

٦- **عدم إعانتهم على كفرهم بأي سبيل**: لعموم قولة تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:٢]، ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ(٣)، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»(٤)، قوله صلى الله عليه وسلم: «وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» أي فقد هلك لأنه راضٍ بالمنكر ومتابع عليه بخلاف من أنكر عليهم ومن كره أفعالهم المخالفة للشرع فلم يتابعهم عليها.

قال النووي -رحمه الله-: "معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكارًا بيدٍ ولا لسانٍ فقد برئ من الإثم وأدى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي"(٥). قلت: وإذا كان هذا في حق الأمراء المسلمين العصاة الذين يفعلون بعض المنكرات كما قال صلى الله عليه وسلم: «فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ» فمن باب أولى أن يكون هذا في حق الأمراء الكفار وكل من وقع في كفر.

٧- **الإنكار عليهم قدر المستطاع**: كما دل عليه الحديث السابق، ولقوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [آل عمران:١١٠]، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَأَى

---

(١) نقلاً عن "عمدة التفسير" -اختصار وتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر جـ٤، صـ١٧١؛ تعليقًا على قوله تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الْمَائِدَة:٥٠]، وراجع كلام الشيخ أحمد شاكر تعليقًا على قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [المائدة:٣٨] نفس المصدر السابق جـ٤ صـ١٤٦-١٤٧.

(٢) رواه أحمد وابن أبي شيبة والطبراني بإسناد حسن.

(٣) فتعرفون وتنكرون: أي تعرفون منهم أمورًا موافقة للشرع وتنكرون عليهم أشياء أخرى، (والحديث في حق المراء الفساق وليس المرتدون).

(٤) رواه مسلم (١٨٥٤).

(٥) (رياض الصالحين) للنووي، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[(١)]، وعن ابن مسعود –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»[(٢)]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»[(٣)]، ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال: «إِنَّهُ سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ مَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ»[(٤)]، فمن باب أولى أن يكون هذا في حق الكفار.

٨- **الدعوة لبيان حال كفرهم والتحذير منه:** كما قال تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٠٤]، وإن أكبر منكر هو الشرك بالله فيجب أن ننهى عنه، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[(٥)].

٩- يجب على المسلم والمسلمة قبل كل ما سبق أن **يُحكِّم القرآن والسنة على كل أحوال حياته وتصرفاته،** مصداقًا لقوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥]، فليست القضية مجرد أن نصدر أحكامًا على الآخرين ولا نُحكِّم شرع الله على أنفسنا، بل يجب أن نُحكِّم شرع الله على أنفسنا قبل غيرنا، وأن نقبل أمر الشرع في كل شيء سواء توافق مع مصالحنا أم تصادم معها. كما قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور:٥١].

نسأل الله أن نكون منهم؛
وهذا هو ما فتح الله به في هذه المسألة.
والحمد لله رب العالمين

(١) رواه مسلم (٤٩).
(٢) رواه مسلم (٥٠).
(٣) (صحيح) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
(٤) رواه الترمذي والنسائي.
(٥) رواه أحمد والترمذي.

(الفصل الثالث)

إفراد الله

بالولاء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد؛

إذا كنا قد علمنا أن توحيد الله سبحانه يعني:

- إفراد الله بالشعائر والنسك.

- وإفراد الله بالتشريع والتحليل والتحريم.

وأن منازعة الله في شيء من هذا شرك أكبر، ومن ينازع الله سبحانه في شيء من خصائصه فهو طاغوت يجب أن يُكفر به {وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا} [النساء:٦٠] وأن من يوجه شيئًا من خصائص الله لغير الله فهو مشرك، وأن (لا إله إلا الله) تعني إفراد الله بالعبادة والألوهية، والكفر بما يُعبد من دون الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»[1].

- إذا علمنا هذا فقد بقي أن نعلم أن الركن الثالث للألوهية هو (إفراد الله بالولاء) يعني توجيه الولاء الذي يشمل (المحبة والنصرة والطاعة والمعاونة وعموم القرب) لله سبحانه، وفي المقابل (البراءة والعداوة والبغض والمقاطعة) لكل ما يُعبد من دون الله ولكل من وقع في الشرك بالله على اختلاف أجناس المشركين، ويبين هذا الأمر كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجماع علماء المسلمين.

فأما القرآن فإن الله تعالى قال: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة:٥٥-٥٦]، هكذا نجد أن الله سبحانه قال بصيغة الحصر {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ ..}، فأصل الولاء: (القرب والمحبة والطاعة والنصرة والتحزب) لله سبحانه وحده، ثم إن المؤمنين والمؤمنات بعد ذلك يوالون (على دين الله سبحانه) وبالتالي يوالون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وبذلك ينحصر الولاء لله سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين؛ لأن الولاء لله سبحانه وعلى دين الله عز وجل.

- وفي المقابل فإن المؤمنين والمؤمنات يقطعون الولاء مع الكافرين والكافرات بالكلية، كما قال الله عز وجل: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران:٢٨]، فهنا نهى سبحانه وتعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحابًا من دون المؤمنين، وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء، أي: أنه قطع العلاقة بينه وبين الله سبحانه، فلم يعد بينه وبين الله شيء.

قال الإمام المفسر ابن جرير الطبري عند تفسير الآية: "وَمَعْنَى ذَلِكَ: لَا تَتَّخِذُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكُفَّارَ ظَهْرًا وَأَنْصَارًا، تُوَالُونَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَتُظَاهِرُونَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَدُلُّونَهُمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ؛ يَعْنِي بِذَلِكَ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ، وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ بِارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ، وَدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ"[2]، وقال

(١) رواه مسلم (٢٣).

(٢)تفسير الطبري (٦/ ٣١٣).

القرطبي -رحمه الله- في تفسير الآية: "أَيْ فَلَيْسَ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ وَلَا مِنْ أَوْلِيَائِهِ فِي شيء"[(١)]، وهو إذن من حزب الشيطان وأنصاره.

- **الإيمان يستلزم عدم موالاة الكافرين:** لأن المؤمنين يوالون على دين الله سبحانه ويتحابون فيه ويتناصرون عليه، فمن هنا فإنهم لا يوالون الكفار نهائيًا لأنه لا توجد صلة تجمعهم مع هؤلاء الكفار، حتى لو كان هؤلاء الكفار هم أقرب الناس إليهم نسبًا وهم أهلوهم وهم عشيرتهم، إلا أن المؤمنين والمؤمنات لا يوالونهم لأنهم ليسوا على دين الله سبحانه، يبين هذا قول الله: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة:٢٢]، ففي هذه الآية "أخبر تعالى أنه لا يوجد مؤمنٌ يُوادُّ كافرًا، فمن وادَّ كافرًا فليس بمؤمن، وإذا كان الله قد نفى الإيمان عن من يُوادّ أباه وأخاه وعشيرته إذا كانوا كفارًا، فمن وادَّ الكفار الأبعدين أولى بأن لا يكون مؤمنًا"[(٢)].

وهذا يبين أنه لا يجتمع الإيمان بالله واليوم الآخر من محبة ومودة من حادَّ الله ورسوله إلا كما يجتمع الضدان[(٣)].

ويلاحظ في الآية أن الله سبحانه ذكر أقرب الأقربين: {وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} وأنهم لو كانوا كفارًا فلا يجوز موادتهم على الكفر حتى يحذر المؤمن من موادة الكافرين مهما كانت درجة قرابتهم أو صلته معهم أو وجود مصالح معه، ثم ذكر الله تعالى عنهم قائلاً: {أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}، ثم ذكر تعالى عنهم: {أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} فهم حزب الله لأنهم تحزبوا وتجمعوا على دين الله سبحانه وليس على أي رابطة أخرى.

أيضًا فإن مما يوضح ارتباط التوحيد بعدم موالاة الكافرين قوله تعالى عن بني إسرائيل: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [المائدة:٧٨] .. إلى قوله تعالى: {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة:٨٠-٨١] فهنا ذكر تعالى عن هؤلاء الكافرين أنهم {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} وبيَّن أن هذا أمرٌ مكفِّر يخرج عن الملة، ويترتب عليه الخلود في العذاب فقال سبحانه: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}، ثم ذكر سبحانه أن هؤلاء الذين كفروا بسبب موالاتهم للكفار لو كان عندهم إيمانٌ بالله والنبي وما أنزل إليهم لما اتخذوا الكفار أولياء كما قال تعالى: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}.

---

(١) تفسير القرطبي (٥٧/٤).

(٢) (الإيمان) لمحمد نعيم ياسين ص١٣٨.

(٣) راجع (مجموعة التوحيد) ص٢٤٨.

- وفي التعليق على هذه الآيات يقول الشيخ محمد نعيم ياسين: "فبيَّن سبحانه أن الإيمان مرتبط بعدم ولاية الكافرين، فثبوت موالاتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضى عدم الملزوم، ومن جهة أخرى فقد رتب الله تعالى على موالاة الكافرين سخطه والخلود في العذاب، وأخبر أن موالاتهم لا تحصل من مؤمن، فإن أهل الإيمان يعادونهم ولا يوالونهم. ثم انظر كيف اعتبر سبحانه وتعالى عدم الموالاة للكفار داخلاً في معنى الشهادتين اللتين عبَّر عنهما بالإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه"[1].

قلت: ارتباط تحقيق (شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) بعدم موالاة الكافرين ثابت في هذه الآية، كما قال سبحانه {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء}.

ومن جهة المعنى: فإن موالاة الكافرين –بمعنى: محبتهم لكفرهم أو طاعتهم في الكفر أو نصرتهم ضد المسلمين، أو التحزب معهم في أحزابهم الكافرة.. ونحو هذا من صور القرب والمحبة والنصرة والمعاونة على الكفر..– تستلزم نصر الكافرين على المسلمين، ونشر الكفر، والرضا به، والإعانة عليه، وعدم إنكاره، وكل هذا إجمالاً وتفصيلاً يتنافى مع التوحيد؛ لأن التوحيد يعني الإيمان بالله والكفر بما يُعبد من دون الله، وبالتالي لا بد من إنكار هذا الكفر وعدم الرضا به وعدم نصرته، وعدم محبة الكافرين يعني بجملة عامة: عدم موالاة الكافرين وقطع كل علاقة أو صورة تعبر عن الرضا بهذا الكفر أو محبته أو نصرته أو المعاونة عليه، وهكذا نجد ارتباطًا وثيقًا بين (الإيمان بالله وتحقيق التوحيد) وبين (معاداة الكافرين وعدم موالاتهم)، وإفراد الله ورسوله والمؤمنين بالموالاة –أي المحبة والنصرة والمودة والطاعة والمعاونة والتحزب على دين الله..– لأن الموالاة تكون على (دين الإسلام وحده).

وكما قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تعليقه على قوله تعالى: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ} قال: "فإن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه يوجب على العبد موالاة ربه وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه ... فشرط ولاية الله والإيمان به أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط –أي معاداة من كفر بالله– فلم يوجد المشروط –أي الإيمان بالله–، {وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} أي خارجون عن طاعة الله والإيمان به، ومن فسقهم موالاة أعداء الله"[2].

- ولذا وجدنا أن الله تعالى فرض على كل المسلمين التبرؤ من (الكافرين، والآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله، والطرق الكافرة التي يتبعها الكافرون) كما قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ..} [الممتحنة:٤]، فهنا بيَّن الله سبحانه وأمرنا أن نتأسى بإبراهيم –عليه السلام– –بصفته أبي الأنبياء عليهم السلام– والذين معه: وهم الذين اتبعوه على التوحيد، وهذه الأسوة هي إعلانهم لقومهم بالبراءة منهم: {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ} فتبرؤوا من (أعيان الكافرين، ومن الأنداد والآلهة الباطلة التي يعبدونها من دون الله) وقالوا لهم: {كَفَرْنَا بِكُمْ} أي: بدينكم الباطل وبطرقكم الكافرة التي أنتم عليها، وقالوا لهم: {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ

---

(١) (الإيمان) لمحمد نعيم ياسين ص١٣٨.

(٢) تفسير (تيسير الكريم المنان) لعبد الرحمن السعدي، [سورة المائدة: ٨٠-٨١].

وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} فأعلنوا لهم بالعداوة والبغضاء والبراءة التامة من الكافرين والآلهة الباطلة، وبأحوالهم وطرقهم الكافرة حتى يؤمنوا بالله وحده، فإذا آمنوا بالله وحده وتركوا الكفر وأبوابه وأسبابه زالت العداوة والبغضاء وانقلبت مودة وولاية(١).

ولكن ما دام الكفار مقيمين على كفرهم فالبراءة منهم تامة، ولا التقاء معهم في منتصف الطريق، لأن الإسلام والشرك لا يلتقيان إلا إذا أسلم الكافر وخلع الشرك، أو ارتد المسلم وركن للكافرين، أو ترك شيئًا من دينه إرضاءً لهم.

وإذن نجد أن الله سبحانه أمرنا بالتأسي بإبراهيم –عليه السلام– وكل من تبعه في هذا الأمر –وهو التبرؤ من الكفر والكافرين والأنداد الباطلة–. والله سبحانه ذكر إبراهيم –عليه السلام– بأنه أبو الأنبياء، فكل الأنبياء التابعين له أتوا من نسله من جهة، ومن جهة أخرى فإن الله سبحانه أمر باتباع دينه كما قال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:١٢٣].

- ونخلص من هذه الآية بالآتي:

١– وجوب البراءة من الكافرين، ومن الأنداد الباطلة ومن الطرق والأساليب الكافرة {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}.

٢– إعلان البراءة من الكفر والكافرين هي الصفة الحسنة التي يجب اتباعهم فيها.

٣– إعلان البراءة من الكفر والكافرين من لوازم التوحيد؛ لأن التوحيد يقتضي موالاة المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم، وبغض الكفر والكافرين ومعاداتهم.

٤– البراءة ليست قاصرة على الأنداد الكافرة والآلهة المزعومة، ولكن أيضًا من الكفار بأعيانهم، وبطرقهم الكافرة.

٥– ليس لأي مسلم أو مسلمة إقرار الكفر أو موادة الكافرين على كفرهم(٢).

- إذا بان معنا أهمية البراءة من الكافرين والآلهة الباطلة، وبأساليب وطرق الكفر المختلفة، فإن كل مسلم ومسلمة يدرك أن (صيحات العولمة الفكرية) التي يرددها (دعاة توحيد الأديان)، و(التقريب بين الأديان) ودعوات (الاعتراف بالآخر) و(عدم تكفير الكفار) ونحو ذلك، ما هم إلا كفار يقصدون هدم دين الإسلام، وإدخال المسلمين في الأديان الكافرة من خلال إسقاط الحواجز بين الإسلام وغيره، وكل هذا من خلال شعارات خبيثة متلونة مثل: (الحوار بين الأديان، والتقريب بين الأديان، وحوار الحضارات) ونحو ذلك، وهي مخالفة لأصل دين الإسلام الذي لا يلتقي مع الكفر وأهله لا في قليل ولا كثير.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير [الممتحنة:٤].

(٢) ولكن (صلة الرحم) للكافر مطلوبة شرعًا دون موادته أو نصرته على كفره، كما في الحديث أن أسماء بنت أبي بكر –رضي الله عنهما– قالت: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ» [رواه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣)].

ولا ينفي هذا إمكان محاورة الكفار، وإقامة الحجة عليهم، وشرح الإسلام لهم، ولكن هذه الصيحات والمؤتمرات يقصد بها الكفارُ إخراجَ المسلمين عن دينهم، وتمييع الفرق بين الإسلام وغيره من الأديان الباطلة المحرفة.

- ومن جهة أخرى؛ فإن على كل مسلم ومسلمة أن يعلم جيدًا (طرق الكفر المختلفة)، فإن أعداء دين الله تعالى كثيرًا ما يضعون طرقًا مخالفة للإسلام تهدم أصول الإسلام، وهذه الطرق يتم زخرفتها وتسميتها أسماء جديدة حتى تلتبس على الناس، وفي صدد قضيتنا (إفراد الله بالولاء، أي: الولاء لدين الله سبحانه) فإن أهل الجاهلية دعوا الناس إلى التجمع حول روابط أخرى –كالتجمع حول رابطة الوطن– فيكون التحزب حوله وليس حول دين الله سبحانه، ولا يكون هناك فرق بين مسلم ونصراني أو يهودي أو علماني إلا بقدر الولاء للوطن ونصرته وخدمته حتى لو كان هذا الوطن يحكمه الكفار، وتعلوه شرائع مخالفة لدين الإسلام، ويصبح الجهاد في سبيل الوطن لا في سبيل الله، حتى أن النصراني والمرتد لو قُتل في سبيل الأنظمة الحاكمة فإنهم يسمونه شهيد الوطن، وشهيد الواجب، وسوف نبين بعون الله أنه لا يجوز الجهاد إلا في سبيل الله كما بينه النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك فإنهم جعلوا التحزب على رابطة الفرعونية، ويفتخرون بالفراعنة –رغم أنهم كانوا وثنيين يعبدون الأنداد الباطلة من دون الله–، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَكَرَمًا، فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ»[(١)]، وجعلوا التحزب على رابطة الأحزاب، وهي فكرة مستوردة من أوربا الكافرة يُقصد بها تفريق المسلمين عن رابطة الإسلام، والتجمع والتعصب على أفكار بشرية قاصرة فاسدة مخالفة لدين الله تعالى ..، وهكذا ينبغي لكل مسلم ومسلمة أن يحذر من طرق الجاهلية المختلفة لأنها كثيرًا ما تهدم دين الله سبحانه تحت شعارات براقة وأسماء جديدة تُحقق مقاصد الجاهلية والكفر دون أن تفصح عن عداوتها للإسلام وإرادة هدمه.

- ولأن الولاء والنصرة على دين الله وحده فإن المؤمنين لا يوادُّون الكفار على كفرهم حتى لو كانوا أقرب الأقربين، كما قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة:٢٢].

فهنا ذكر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر يوادُّ كافرًا محادًا لله ورسوله –أي أن ذلك الكافر في حدٍ أو شقٍ مخالفٍ لله ورسوله لأنه على دين كافر يُغضِب اللهَ ورسوله– وبالتالي فالمؤمن لا يوادّ الكافر على كفره لأنه لو أعطى الود للكافر على كفره فهو بالتالي راضٍ بكفره ومقرٌ بذلك الكفر، بل المؤمن يبغض الكافر على كفره حتى لو كان أولئك الكفار {آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}، فالمؤمن لا يواد الكفار لأن الرابطة التي يتحزب حولها

(١) رواه أحمد في مسنده.

هي دين الله سبحانه وليس أي رابطة أخرى، وإذا كان الله سبحانه قد بيّن أنه لا يوجد مؤمن يوادّ كافرًا ولو كان من أقرب الأقربين، فمن باب أولى أن من وادّ الكافر البعيد فإنه يكون كافرًا.

وتأكيدًا لهذه الآية وهذا المعنى؛ فإن الله سبحانه قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:٢٣]، فهنا نجد أن الله تعالى نهى المؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء لو استحبوا الكفر على الإيمان، فإن ولاية الأهل والقوم -إن كانوا كافرين- شركٌ لا يتفق مع الإيمان ومقتضى الإيمان الذي يوجب قطع الولاء مع الكافرين، وقد قال ابن عباس -رضي الله عنهما- تعقيبًا على الآية السابقة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:٢٣]، قال: "هو مشركٌ مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك"[(١)]، وقال القرطبي: "وهذه الآية باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين"[(٢)].

وإذا كنا قد رأينا أن موالاة الكفار الأقربين كفر، فمن باب أولى أن موالاة الكفار الأبعدين كفر، ورأينا أن النهي عن موالاة الكفار حتى لو كانوا أقرب الناس راجع لكون الموالاة على دين الله وحده، وليس على روابط أخرى كرابطة الدم أو الوطن أو القبيلة والعصبية، ولكن كما سنرى أن أعداء دين الله قدموا بدائل أخرى بصورة مزخرفة حتى يجتمع الناس حولها يوالون فيها ويحبون من أجلها ويقاتلون في سبيلها، ويتعادون لأجلها، وما ذاك إلا لعادة شياطين الإنس الذين دائمًا ما يقدمون البدائل عن دين الله سبحانه تحت أسماء مزخرفة.

- ولأن موالاة الكفار على كفرهم ونصرتهم عليه تتناقض مع دين الله تمامًا لأن النصرة والمحبة والطاعة لا بد أن تكون على دين الله وحده، فمن هنا وجدنا أن الله سبحانه يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة:٥١-٥١]، فهنا نهى سبحانه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء}، ثم بيَّن حقيقة أمرهم فهم يتوالون ويتناصرون على الكفر والصد عن سبيل الله فقال سبحانه: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}، ثم أخبر أن من تولاهم فهو كافر مثلهم فقال سبحانه: {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، وأكد فقال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، ثم أخبر أن من يتولاهم هم المنافقون الذين في قلوبهم شكٌ وريب ويشكون دائمًا في نصر الله وتأييده فيجعلون للكافرين نصيبًا ويسارعون إلى توليهم ومعاونتهم بحجة أنهم يخشون

(١) راجع (أحكام القرآن) للقرطبي (جـ٨، صـ٩٤)، [التوبة:٢٣].
(٢) راجع (أحكام القرآن) للقرطبي (جـ٨، صـ٩٤)، [التوبة:٢٣].

من تقلب الأوضاع وتغلب الكافرين، فقال سبحانه مُخبرًا عن حال هؤلاء المنافقين –الذين يتولون الكفار على كفرهم–: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ}، فعقب سبحانه على سوء ظن المنافقين فقال: {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}، ثم أخبر بحبوط أعمالهم لأن موالاة الكفار كفر يحبط الأعمال فقال: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ} [المائدة:٥٣]، وهكذا نرى أن موالاة اليهود والنصارى كفر بأكثر من دلالة في الآية؛ كما رأينا قوله: {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، وقد قال حذيفة –رضي الله عنه– تعقيبًا عليها: "ليتق أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا وهو لا يشعر لهذه الآية"، ونفس الكلام نقله التابعي محمد بن سيرين عن عبد الله بن عتبة[١]،وقال الإمام ابن العربي المالكي –رحمه الله–: "إن الآية تفيد نفي اتخاذ الأولياء من الكفار جميعًا"[٢]، وقال القرطبي المفسر –رحمه الله– في قوله تعالى: {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، قال: "أي من يعاضدهم ويناصرهم على المسلمين فحكمه حكمهم في الكفر والجزاء، وهذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة، وهو قطع الموالاة بين المسلمين والكافرين"[٣]. لأن في الآية شرطًا وجوابًا، فإذا تحقق الجواب يتحقق الشرط، أي من تولى الكافرين كان كافرًا منهم، فلذا تجب معاداة الكفار وعدم موالاتهم، وتجب معاداة الموالي للكفار، وتجب النار لمن يوالي الكفار إن لم يتب قبل موته، كما تجب النار لمن مات كافرًا وصار منهم ومن أصحابهم ومن أهل ملتهم، ولو لم يقل: أنا يهودي أو نصراني أو شيوعي أو بعثي أو اشتراكي أو علماني أو وثني أو نحو ذلك، ولو كان اسمه محمدًا أو عليًا أو خلافه، ولو نطق بالشهادتين؛ لأنه لم يحقق معناهما ولم يعمل بمقتضاهما بل أتى بموالاة الكفار التي تتناقض مع الشهادتين وتحقيق التوحيد.

- ومن جهة أخرى؛ فإن الله تعالى أخبر أنه لا يتولى الكافرين إلا المنافقون كما قال: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} أي: من في قلوبهم مرض النفاق، وهو الشك في أركان الإيمان ووعد الله سبحانه.
- من جهة ثالثة؛ فإن الله سبحانه أخبر عن حبوط أعمال من يتولون الكفار، كما قال سبحانه عنهم: {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ} ومن المعلوم أنه لا يحبط الأعمال بالكلية إلا الكفر كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر:٦٥]، فالشرك هو الذي يحبط العمل بالكلية. وكما قال القاضي عياض –رحمه الله–: "ولا يحبط العملَ إلا الكفرُ، والكافر يُقتل"[٤]. وقال ابن تيمية –رحمه الله–: "وما قد

(١) راجع (مجموعة التوحيد) ص١١٥، و(الإيمان) لمحمد نعيم ياسين ص١٣٧–١٣٨.
(٢) (أحكام القرآن) لابن العربي (٦٣٠/٢).
(٣) تفسير القرطبي (٢١٧/٦).
(٤) (الشفا) للقاضي عياض المالكي [٢١٢/٢].

يُفضي إلى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب، والعمل يحبط بالكفر قال سبحانه: {وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}"[١]، وقال أيضًا: "ولا يحبط الأعمال غير الكفر"[٢].

وهكذا بان معنا من ثلاثة وجوه للآية أن موالاة الكفار على كفرهم كفر مخرج من ملة الإسلام.

وتعضيضًا لما سبق فإن الله سبحانه قال: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا} [النساء:١٣٨-١٣٩]،ذكر سبحانه في هذه الآية أن المنافقين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فيوالون الكافرين وينصرونهم على كفرهم ويحبونهم على كفرهم ويوادونهم عليه، وذلك بحجة خوفهم منهم وابتغائهم العزة عندهم، وذكر تعالى أنه أعد لهم العذاب الأليم بسبب موالاتهم الكفار، والشاهد من الآية أن الله تعالى ذكر أن من أخص خصائص المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، حيث إنه سبحانه لم يذكر لهم سوى هذه الخصلة الذميمة، فدل هذا على أن من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فقد ظهرت عليه علامة من علامات النفاق الأكبر التي كانت تخص المنافقين في عهد النبوة، ومن ظهرت عليه علامة من علامات النفاق الأكبر فإنه يُسمى مرتدًا لا منافقًا كما قال حذيفة –رضي الله عنه–: "إِنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا اليَوْمَ فَإِنَّمَا هُوَ الكُفْرُ بَعْدَ الإِيمَانِ"[٣]، وقال ابن تيمية –في نفس المضمون–: "فثبت أنه لا بد أن يختص هذه الأقوال بوصفٍ يوجب كونها دليلاً على النفاق وكل ما كان كذلك فهو كفر"[٤]، أي كل ما دل على النفاق الأكبر فهو دليل على الكفر الأكبر إذا كان ظاهرًا غير مستتر.

- ومما يؤكد أن موالاة الكفار دون المؤمنين وطاعتهم في كل ما يأمرون به سواء كان كفرًا أو صدًا عن سبيل الله أو نحو ذلك فهو كفر أكبر: قوله تعالى عن بعض أصناف المرتدين: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد:٢٥-٢٨]، فهنا ذكر تعالى صنفًا من المرتدين فقال: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} أي لم تكن ردتهم نتيجة جهل بل بعد علم وتبين الهدى لهم، فهؤلاء {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} وسبب ردتهم أنهم قالوا للكافرين الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، كما قال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} ويظنون أنه لا يعلم الناس عنهم شيئًا {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ}، ثم أخبر تعالى عن

(١) (الصارم المسلول) للشيخ العلامة ابن تيمية ص٥٤.

(٢) (الصارم المسلول) ص٥٥، والمقصود أن الكفر يحبط كل الأعمال الصالحة، اما المعاصي أو الرياء أو غير ذلك فتحبط بعض الأعمال الصالحة وليس كلها.

(٣) رواه البخاري (٧١١٤).

(٤) (الصارم المسلول) لابن تيمية ص٣٥.

حالهم في حال الموت فقال: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}، وهذه الآيات تبين لنا الآتي:

١– هناك مرتدون عن دين الإسلام، وليس كما يظن الجهال أنه لا يصح تكفير أحد.

٢– ليس سبب ردتهم هو الجهل، فلا مانع من ردة العالم بالحق نتيجة الهوى أو الشهوة أو المصالح الدنيوية.

٣– سبب الردة هو قولهم ووعدهم للكافرين الكارهين لما نزل الله {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} فمن باب أولى أن من وعد الكافرين بطاعتهم في كل الأمر وليس بعضه فهو مرتد، ومن باب أولى من أطاعهم بصورة عملية وليس مجرد وعد فهو مرتد.

٤– ودل هذا على أن هناك طاعة للكفار مخرجة من ملة الإسلام، وسوف نذكر جملة من صور الطاعة المكفرة، كطاعتهم في الصد عن سبيل الله وإيذاء المؤمنين وغير ذلك.

٥– من خصائص الكافرين أنهم يكرهون ما أنزل الله من شرع وقرآن كما وصفهم تعالى بوصف واحد في هذه الآيات فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ **كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ** سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} فتم التعبير عن الكافرين بأنهم كرهوا ما نزل الله {كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ} فكل من كره ما نزل الله فهو كافر وإن زعم الإسلام، كالذين يحكمون بغير شرع الإسلام، لأنهم يُفضّلون عليه العلمانية، والديمقراطية ونحو ذلك.

- أخيرًا نؤكد على أن الآية تفيد أن من صور الموالاة المكفرة: وعد الكافرين بطاعتهم (وإذا كانت الردة حاصلة لمن وعد المشركين بالطاعة في بعض الأمور فكيف حال من وافق المشركين وأطاعهم في كل الأمور قولاً وفعلاً، ألا يكون هؤلاء أحرى بالردة من أولئك الذين وعدوا المشركين بالطاعة في بعض الأمور دون البعض الآخر؛ وبناءً على ذلك فإن اتباع المشركين والدخول في طاعتهم، والشهادة لهم بأنهم على حق، ومعاونتهم على الباطل، وترك التوحيد وأهله وخذلان أصحابه.. كل هذه أمور موجبة للردة والكفر)[(١)].

ويتبين معنا أن هناك موالاة للكفار مكفرة لمن وقع فيها بدليل قوله تعالى في هذه الآيات: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى} والردة: هي الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، فضلاً عن قوله تعالى عن هؤلاء المرتدين: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}، وكما سبق الذكر أن (حبوط العمل بالكلية) لا يكون إلا مع الكفر، ولم يُذكر في القرآن حبوط العمل إلا في مقام الكفر.

---

(١) راجع (مجموعة التوحيد) ص٢٤٤، و(الإيمان) لمحمد نعيم ياسين ص١٣٩.

وهكذا يتبين معنا مما سبق ذكره من آيات التالي:

١- أن الله تعالى حصر الموالاة له سبحانه ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:٥٥].

٢- لا يجوز موالاة الكفار على اختلاف أجناسهم سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو وثنيين أو مرتدين أو خلاف ذلك، كما قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ} وكما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} وكما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [المائدة:٥٧]، فنهى سبحانه عن اتخاذ الكفار أولياء سواء كانوا من الذين أوتوا الكتاب (أي: اليهود والنصارى) أو من عموم الكفار.

٣- الكفار أعداء للمؤمنين ولا تجوز موالاتهم كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة:١].

٤- المؤمن والمؤمنة لا يُوادّ كافرًا على كفره ولو كان من أقرب الأقربين كما قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ..}، وكما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، ومن باب أولى فلا تجوز ولاية الكفار الأبعدين.

٥- تجب البراءة من: المشركين بأعيانهم، ومن الأنداد والآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله، كما قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..}.

٦- مجاهرة الكافرين بالعداوة والبغضاء من لوازم البراءة من الكافرين كما في نفس الآية على لسان إبراهيم –عليه السلام– وكل من تبعه من الأنبياء –عليهم السلام– وكل المؤمنين في قولهم للكافرين: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}.

٧- موالاة الكافرين على دينهم الباطل، أو مناصرتهم ضد المسلمين، أو محبتهم على كفرهم، أو طاعتهم فيما هو كفر، كل هذا كفر لأنه من الموالاة المكفرة المخرجة من ملة الإسلام –كما سبق ذكر العديد من الآيات وتعليق العلماء عليها– كما قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} أي فقد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن الدين ودخوله في الكفر –كما قاله ابن جرير الطبري رحمه الله–. وكما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} فمن تولى اليهود فهو يهودي، ومن تولي النصارى فهو نصراني، ومن تولى الكفار فهو كافر مثلهم –كما سبق الذكر عن حذيفة –رضي الله عنه– وعبد الله بن عتبة والقرطبي وغير ذلك–، وكما قال تعالى: {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} فتولي الكافرين ترتب عليه {أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}، فموالاة الكافرين يترتب عليها سخط الله والخلود في العذاب لأن موالاة الكفار على كفرهم كفر مخرج من ملة الإسلام.

٨– ولذا فإنه لا يوالي الكافرين إلا من في قلوبهم نفاق أكبر مخرج من ملة الإسلام، كما قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ..} فاتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين من أخص خصائص المنافقين، وكما قال تعالى عن موالاة اليهود والنصارى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ}.

٩– شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله تستلزم عدم موالاة الكافرين، كما قال تعالى: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} فالإيمان بالله والنبي صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه يستلزم عدم اتخاذ الكافرين أولياء. وهكذا ترى الارتباط الوثيق بين تحقيق التوحيد وعدم موالاة الكافرين.

١٠– ومن معاني الموالاة: (النصرة والمحبة والود والطاعة والمعاونة والرضا بأفعالهم وأقوالهم المكفرة، واتخاذهم بطانة ونحو ذلك)، حيث إن الولاية من الولاء، وهو: الدنو والقرب والمتابعة. والولاية ضد العداوة، والولي عكس العدو، فالمؤمنون أولياء الرحمن لقربهم من الله بطاعته وعبادته والإيمان به، والكافرون أولياء الشيطان لقربهم من الشيطان بطاعته واتباعه، وبعدهم عن الله بعصيانه ومخالفته.

فإذا علمنا هذا فإن المؤمن والمؤمنة يوالي المؤمنين على دين الله سبحانه ويعادي الكافرين في الله سبحانه، وهذا كما قال الله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [التوبة:٧١]، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف المؤمنين: «تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»[1]، وفي المقابل فإن المؤمنين والمؤمنات يقطعون المودة والمحبة والنصرة والطاعة مع الكافرين بل يجاهرونهم بذلك –متى قدر عليه– ،كما سبق قوله تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ..} فإذا حدث هذا فإن كل مؤمن ومؤمنة ينصر المسلمين على دين الله إلا

(١) رواه البخاري (٦٠١١).

إذا وقعوا في ظلم فإنه لا ينصرهم بل يكفهم ما استطاع، ويحب المؤمنين على قدر إيمانهم وطاعتهم ويعاون المؤمنين ما استطاع ..، وهكذا بصور كثيرة سنذكر بعضها بعون الله، وكلها تعبير عن تجمع المؤمنين حول رابطة الدين وحده. وفي المقابل فإنه يبغض الكافر لكفره، ولا يناصره، ولا يعاونه على كفره، ولا يعينه ضد المسلمين، ولا يتخذهم خاصة وبطانة وأولياء، ويعاديهم لأجل كفرهم ...وغير ذلك من الصور التي تبين براءته من الكافرين وعداوته لهم على دين الله حتى يؤمنوا بالله وحده.

١١- ومن هنا نجد الآتي: (أوثق عرى الإيمان؛ الحب في الله، والبغض في الله) نعم؛ هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الموالاة في الله، والمعادة في الله، والْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»[١].

- العُروة: هي يد الإناء، أي الجهة التي لو أمسكت الإناء من خلالها لأمسكته من جهة متينة فلا يسقط منك، **والمعنى**: أن الحب في الله، والبغض في الله هو أوثق جهة يمكن الإمساك بالدين من خلالها فلا ينفصم الدين عن صاحبه ما دام متمسكًا بهذه الجهة، ونفس الحال بالنسبة إلى الموالاة والمعادة في الله فهما من أوثق عرى الإيمان.

- إذن ما معنى الحب في الله والبغض في الله؟

الحب في الله: هو الحب لأجل الإيمان والطاعة، والبغض في الله: هو البغض لأجل الكفر والمعصية.

- ومن هنا فإن أهل السنة يقسمون الناس إلى ثلاثة أقسام من جهة الحب والبغض:

١- فهناك من يحب بإطلاق، وهو المؤمن الطائع الذي ظهر منه الإيمان ولم يظهر منه ما يستوجب الإنكار عليه شرعًا.

٢- وهناك من يبغض بإطلاق، وهو الكافر ويلحق به المرتد لأنه أشد كفرًا من الكافر الأصلي.

٣- وهناك من يحب من وجه، ويبغض من وجه، وهو المسلم العاصي، والمسلم الفاسق، والمسلم المبتدع بدعة غير مكفرة. فهذا يُحب لأجل إسلامه وبقدر طاعته، ويُبغض بقدر معصيته سواء كانت صغيرة أم كبيرة، ويُبغض بقدر إفساده في الدين.

١٢- لماذا كانت الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله، هي أوثق عرى الإيمان؟ ولها هذه المنزلة العظيمة في الدين؟

- الجواب: لأن الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، لن تصدر إلا ممن امتلئ قلبه بالإيمان، وكان غرضه وجه الله سبحانه، وكان حبه لله أشد من حبه لنفسه، فصار غرضه الله سبحانه وليس هوى نفسه أو إرضاء الناس، بل إن المؤمن لن يحب في الله ويبغض في الله إلا إذا كان صحيح الإيمان، وبالتالي فإن الحب في الله والبغض في الله هو (مقياس لدرجة الإيمان).

---

(١) رواه أحمد وابن أبي شيبة والطبراني بإسناد حسن.

- من جهة أخرى؛ فإن البغض في الله والمعاداة فيه تُعبر عن مدى الغيرة على حرمات الله سبحانه، فمن كان في قلبه غيرةٌ لله سبحانه فلا بد أن يكون عنده بغض في الله، ومعادة في الله، فمن عُدم البغض في الله والمعاداة في الله فهو عادم للغيرة على دين الله وحرماته، وهذا لا يكون إلا من كافر أو منافق، ولذا ورد في الحديث عن واثلة ابن الأسقع -رضي الله عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وَيُؤْتَى بِعَبْدٍ مُحْسِنٍ فِي نَفْسِهِ لَا يُرَى أَنَّ لَهُ ذَنْبًا، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ كُنْتَ تَوَالِي أَوْلِيَائِي؟ قَالَ: كُنْتُ لِلنَّاسِ سَلْمًا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتَ تُعَادِي أَعْدَائِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدٍ شَيْئًا، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَا يَنَالُ رَحْمَتِي مَنْ لَا يُوَالِي أَوْلِيَائِي ويُعَادِي أَعْدَائِي»[1].
- أيضًا فإن الموالاة في الله، والمعاداة في الله هي الرابطة الوثيقة التي تجمع بين المسلمين؛ فإن المسلمين يوالي بعضهم بعضًا على دين الله سبحانه، وليس على أي رابطة أخرى، ومن هنا فإنهم يتحابون ويتناصرون ويتعاونون على دين الله سبحانه.

وفي المقابل يبغضون الكافرين ويحاربونهم لكفرهم وصدهم عن سبيل الله، ولذا فإنه متى فهم المسلمون هذا المعنى فإنه يترتب عليه زوال الحب والنصرة لأجل العصبيات الأخرى -كالنصرة على القبلية والوطن والحزب وغير ذلك-، ومن جهة أخرى سينصر المسلمون بعضهم بعضًا على دين الله، فإذا قام الكفار بالتسلط على المسلمين في بلد فإن المسلمين في كل البلدان الأخرى سينصرون المسلمين في هذا البلد وإن لم يكونوا من جنسهم وأبناء بلدهم، لأن المسلمين يوالي بعضهم بعضًا على دين الله.

- أما إذا كان المسلمون لا يتوالون على دين الله سبحانه فإنهم بالتالي لن ينصر بعضهم بعضًا إذا تسلط عليهم الكفار لأن الولاء والنصرة لم تعد على دين الله سبحانه، وإنما أصبحت على روابط أخرى -كالقومية، والوطن، والحزب وغير ذلك-؛ ويبيّن هذا المعنى قول الله تعالى: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال:٧٣]، ومعنى الآية: أن الكافرين يوالي بعضهم بعضًا، وليس للمؤمنين موالاتهم بنصرٍ أو إرثٍ أو غير ذلك، ثم قال تعالى: {إِلاَّ تَفْعَلُوهُ} أي: إن لم توالوا المسلمين كما يوالي الكفار بعضهم بعضًا {تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} بقوة الكفر وضعف الإسلام[2]، وهذا أمر بداهيّ فإن الكفار يوالي بعضهم بعضًا على الكفر، فمهما اختلفوا مع بعضهم فإنهم يتحالفون ضد المسلمين وينصرون بعضهم على الكفر، وبالتالي فإن لم يوالِ المسلمون بعضهم بعضًا فإن الكفار سيتسلطون على المسلمين، وهذا لعدم موالاة

(١) رواه الطبراني في (المعجم الكبير)، وأبو نعيم في (الحلية)، وأورده الشيخ حمود التويجري في (تحفة الإخوان).

(٢) راجع (تفسير الجلالين).

المسلمين لبعضهم، وأما إذا ناصر المسلمون بعضهم بعضًا فلن يستطيع الكافرون التسلط على المسلمين. وهذا المعنى الذي ذكرته الآية السابقة في سورة الأنفال والذي يثبته التاريخ والواقع والعقل، وبنظرة بسيطة فإننا نجد أن المسلمين في الأندلس لما كانوا في صراع مع نصارى الشمال كانوا عادة ينتصرون على النصارى كلما دخلوا في صراع معهم، فلما انقسموا إلى إمارات صغيرة متنازعة وفي المقابل اتحدت ممالك النصارى في الشمال كانت النتيجة أن النصارى تسلطوا عليهم وكانوا في أكثر الأحيان إذا حاربوا إمارة من إمارات المسلمين التي وصلت إلى حوالي (٢١ إمارة) في فترة تُسمى بـ(عصر ملوك الطوائف) كان النصارى إذا حاربوا مملكة من ممالك المسلمين كان جيرانها عادة لا يناصرونها فسرعان ما تسقط في أيدي النصارى. بل كان يحدث أحيانًا أن أحد الأمراء الخونة المرتدين يناصر النصارى ضد المسلمين، واستمر الحال كذا حتى لم يبقَ للمسلمين سوى إمارة غرناطة وأجزاء بسيطة أخرى في الجنوب، ومع ذلك وجدنا أبا عبد الله الكبير يتحالف مع النصارى ضد أخيه بل يرضي زوجته النصرانية ويحبس زوجته العربية المسلمة وابنه منها إرضاءً لها، ثم نفس الحال لما تولى ابنه أبو عبد الله الصغير تحالف أيضًا مع النصارى ضد عمه حتى استولى النصارى على بلاد عمه، ولم يعطوه شيئًا، ثم انقلبوا عليه فورًا وهنا لم يجد معينًا من المسلمين فسرعان ما سقط، وانتهى الوجود الإسلامي في الأندلس بعد وجود دام حوالي ثمانية قرون!!، ثم لما كان العصر الحديث كان الأمر أسوأ ظلمًا وظلامًا، فقد احتل النصارى –انجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا– أكثر بلدان المسلمين(١)، وبدأت تحضر المفكرين والقساوسة والسياسيين لدراسة المسلمين بصورة متأنية، حتى يزيحوا عقيدة الإسلام من قلوبهم، وحتى يزيلوا الخلافة الإسلامية من الوجود نهائيًا، وحتى لا تكون سيطرتهم على بلاد المسلمين مجرد سيطرة عسكرية تزول بزوال قواتهم، فمن هنا طرحوا عدة أطروحات لهدم الإسلام وعقيدته وشريعته في قلوب أتباعه، وتقديم البدائل المزخرفة، كبدائل عنهم، فمن هنا طرحوا فكرة (الانتماء للوطن) و(الانتماء للأحزاب) كبديل عن الانتماء للإسلام وبديل عن رابطة الخلافة التي كانت تجمع كل المسلمين دون تمييز بين مسلم مصري، ومسلم سوري، ومسلم سعودي، وحتى تنجح فكرتهم فإنهم انتهجوا عدة أساليب:

---

(١) عندما وقعت الحروب الصليبية ضد ديار المسلمين، وكان من ضمنها حملة (لويس التاسع) التي احتلت (دمياط) ثم هزمت في (المنصورة) هزيمة منكرة وتم أسر ملك فرنسا (لويس التاسع)، الذي كان متدينًا متعصبًا حتى سُمّي بـ(القديس لويس)، وبعد أسره في دار ابن لقمان بالمنصورة أخذ يفكر بهدوء في سبب فشل الحملات المتتالية رغم كثرة الجند والعتاد، فوجد أن وضوح العداء الديني ورفع شعار الحروب الصليبية يؤدي إلى رد فعل شديد لدى المسلمين، فمن هنا رأى أن أفضل وسيلة هي محاولة تغيير عقول المسلمين وقلوبهم من خلال أساليب ملتوية غير واضحة العداء يتم تقديمها للمسلمين تحت شعارات لا تصطدم مع المسلمين وفي نفس الوقت تؤدي إلى إبعاد المسلمين عن دينهم، وكانت هذه هي بداية فكرة (الغزو الفكري للمسلمين)، والتي بدأت بالفعل مع حضور الحملة الفرنسية على مصر. [ذكر ما سبق عن القديس لويس التاسع مؤرخ حملة (جوانفيل)].

أولها: أن يكون القائمون بهذا التغيير منتسبين إلى الإسلام ظاهرًا، ومن جنس المسلمين على أنهم في الحقيقة لا ينتسبون إلى الإسلام، إلا بالأسماء، ولكنهم مبهورون بالغرب النصراني تمامًا، وعلى استعداد تام لتبني كل أفكاره وترويجها بين المسلمين، بحيث يكون هناك قبول لأفكراهم ولو إلى حدٍ ما، نظرًا لانتسابهم الظاهر إلى الإسلام.

ثانيًا: أن تكون كل النقاط المعروضة على المسلمين تحت شعارات جديدة مزخرفة، ولا تعبر عن الاصطدام الواضح بالإسلام وعقيدته بحيث لا يحدث رفض لها نتيجة صدامها المباشر مع الإسلام.

ثالثًا: أن يتم عرضها مع قدر من الشبهات حتى تبدو كل النقاط المعروضة كأنها شرعية ولا تتنافى مع الإسلام مع أن حقيقتها الخروج عن الإسلام وشريعته.

رابعًا: أن تكون النقاط المعروضة شاملة في كافة المجالات المخالفة للإسلام، فالبعض يتبنى هدم الحكم بشريعة الإسلام تحت شعارات (العلمانية والديمقراطية والليبرالية..)، والبعض يدعو إلى استحلال المحرمات تحت شعار (الفن والإبداع والفكر الإنساني)، والبعض يهاجم الحكم بالإسلام باعتباره حكمًا ثيروقراطيًا أو (الحكم الإلهي) –في حد زعمهم–، والبعض يدعو إلى الالتفاف تحت شعار (القومية العربية والانتماء الوطني والانتماءات الحزبية) ..إلخ.

خامسًا: يتم رفع هؤلاء الدعاة الجدد الذين يبغون هدم الإسلام إلى المكانات العالية ويتم إضفاء ألقاب فخمة عليهم فهذا (مجدد الشرق)، وهذا (عميد الأدب العربي)، وهذا (صاحب الفكر المستنير)، وهذا (الزعيم الملهم) ..وهكذا. وكان من هذه النقاط التي يريدون إسقاطها عند الناس ويجعلون بديلاً عنها رابطة (الولاء على دين الإسلام)، فتم رفع شعار (الوطنية) و(القومية العربية) كبديل عن الإسلام وعن الالتفاف حول راية (الخلافة الإسلامية) وإمعانًا في تأصيل الأمر، فمن جهة تسلط على الدولة العثمانية مجموعة من الكفار يرأسهم (كمال أتاتورك)[1] الذي ينحدر من سلالة (يهود الدونمة) وتولى أتاتورك المذكور إلغاء الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م في شهر مارس، وتم إلغاء الأذان باللغة العربية، وتم إلغاء الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين السويسرية والإيطالية وغيرهما، ومنع الحجاب من كل معاهد الدراسة والعمل، ومنع لبس الطربوش العثماني ..وهكذا، وصحب هذا بل قبله دعوتان:

١– دعوة الالتفاف حول (الجنس الطوراني) –وهو أصل جنس الأتراك– بدلاً من الالتفاف حول (رابطة الخلافة).

٢– تبني سياسة التتريك في العالم العربي، أي: إحلال اللغة التركية في التعليم والوظائف الحكومية وجعلها اللغة الرسمية في دواوين الدول العربية.

---

(١) وكالمعتاد كان قد تم تلميع (كمال أتاتورك) ووصفته الصحف بلفظ (الغازي كمال) حتى مدحه أحمد شوقي في أول الأمر وقال عنه:

الله أكبر كمْ في الفتح من عجبٍ   يا خالد الترك جد خالد العربِ

- ترتب على هذا رد فعل في أرجاء العالم العربي فنادى آخرون بنبذ الحكم التركي والدعوة إلى إقامة (خلافة عربية) وكان المرشح للخلافة العربية هو (الشريف حسين) –وكان عميلاً للإنجليز أو على الأقل كان على علاقة وثيقة معهم– وقد طلبوا منه أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م–١٩١٨م) مساعدتهم ضد الدولة العثمانية ولم يكن قد ظهر أتاتورك وأتباعه، وبالفعل عاونهم الشريف حسين وأتباعه حتى انهزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى، وأحكم الاستعمار الغربي قبضته على البلاد العربية، ولم يمنح الشريف حسين وأولاده سوى حكم الأردن والعراق، وسيطر عبد العزيز بن سعود على بلاد الحجاز وانتزعها من الشريف حسين وغيره.

والمقصود أنه ظهرت في هذه الآونة فكرتان دعمهما الاحتلال:

الأولى: هي فكرة (القومية العربية) والدعوة إلى الالتفاف حولها كرابطة بديلة عن (الخلافة الإسلامية).

الثانية: فكرة الحزبية وسنتكلم عنها بعد قليل.

فالأولى وهي فكرة (القومية العربية) وتصاحبها فكرة (الوطنية) وهي الانتماء للوطن، فالمصري ينتمي لمصر، والعراقي للعراق، والسوري لسوريا ..وهكذا، وتم أيضًا إحياء نعرات (الحضارات القديمة) فنعرة الفرعونية في مصر ونعرة الآشورية والبابلية في العراق، ونعرة الطورانية في تركيا ..وهكذا، وقام الكُتَّاب والمفكرون والصحفيون والإعلاميون ورجال التعليم بل كثير من رجال الدين بتمجيد الانتماء للقومية العربية والانتماء للوطن، وبدأت المقالات والكتابات تتوالى في هذا الشأن بدءًا من نعومة أظافر الأطفال الذين يقرأون في كتب المدرسة، (بلادي التي أحبها، نشأت على أرضها، وأظلتني سماؤها، وشربت من مائها، وجدودي يختلطون بترابها ..)، مرورًا بالأناشيد المدرسية والأغاني الوطنية، التي تردد (مصر هي أمي، نيلها جوّه دمي، شمسها في سماري، شكلها في ملامحي، حتى لوني قمحي، لون خيرك يا مصر)، وهذا ينشد (حب الوطن فرض عليَّ، أفديه بروحي وعينيَّ) وهؤلاء يغنون (يا أغلى اسم في الوجود، يا مصر، يا اسم مخلوق للخلود، يا مصر، نعيش لمصر، نموت لمصر، تحيا مصر ..) وهكذا لم تعد القضية مجدر انتماء عابر أو ثانوي، ولكن تحولت إلى عقيدة جديدة، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، حتى إنهم يسمونها بـ(العقيدة الوطنية)، وأصبح الجهاد في سبيل الوطن، والشهيد هو شهيد الوطن أو شهيد الواجب والوطن، أو شهيد الله والوطن –على حد كتاباتهم– ومكانة كل شخص تتحدد بناءً على مدى انتمائه الوطني، وأصبح مصطلح (المواطنة) يحل مكان (الموالاة على دين الله)، وأصبحت الخيانة هي خيانة الوطن –أعني في الحقيقة خيانة الأنظمة الحاكمة– بل أصبح البعض ينادي بإلغاء خانة الديانة من البطاقة، والاكتفاء بالمواطنة –وهي الجنسية– دون تفريق بين مسلم ونصراني –مسيحي على حد تعبيرهم– بل وجدنا بعض النصارى يطالبون بإباحة الزواج من المسلمات ويدللون على ذلك بأن الغرباء من دول الخليج (يعنون المسلمين من السعودية ودول الخليج) يتزوجون من

المصريات، فأولى بنصارى مصر أن يتزوجوا من المسلمات المصريات باعتبار أنهم أهل بلد واحد، فرابطتهم أقوى وأقرب من الغرباء -أهل الخليج-!![1]، ووجدنا الشعارات تُرفع في الصحف والخطب والكتابات لتقول: (يحيا الهلال مع الصليب)[2] مع أن الصليب شعار الكفر ورمز دين النصرانية المحرفة، لأن النصارى تزعُم أن المسيح صُلب على الصليب، بينما يقول الله تعالى في القرآن: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء:١٥٧]، ويرفعون شعار (الدين لله والوطن للجميع) يريدون بذلك أنه لا دلالة للتفرقة بين المسلم والنصراني أو اليهودي، فالجميع أبناء وطن واحد لا يتميزون إلا بمدى الانتماء لهذا الوطن، وهذا باطل لأن الله سبحانه يقول: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص:٢٨] وهذا استفهام استنكاري من الله تعالى لمن سوّى بين المؤمنين العاملين بالصالحات وبين المفسدين في الأرض، وكذلك فلا يستوي المتقون والفجار، وكذلك فإن الله تعالى يقول: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية:٢١] أي أن الله تعالى يستنكر على الذين يعملون السيئات هل يحسبون أن يجعلهم الله سبحانه في حياتهم ومماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات دون فرق؟ فهذا حكم سوء لا يليق بالله سبحانه، ولذا عقب قائلاً سبحانه {سَاء مَا يَحْكُمُونَ} فالمؤمن لا يستوي مع الكافر لا في أحكام الدنيا، ولا في أحكام الآخرة، وهذه الشعارات التي رفعوها وعظموها، والتي تجعل الولاء حول الوطن لا أكثر هي نفس حال أهل الجاهلية وحال التتار المارقين عن الإسلام، فأهل الجاهلية كانوا يوالون على القبيلة سواء كانت على حق أم على ظلم، لأن تعصبهم وموالاتهم تدور حول القبيلة التي ينتمون لها، ويتناصرون لرفعتها على القبائل الأخرى كما قال قائلهم معبرًا عن ذلك:

وهل أنا إلا من غُزَيَّة إنْ غوت غويت، وإنْ ترشد غزية أرشد[3]

يعني هذا الجاهلي من قبيلة (غزية) إن غوت وضلت هذه القبيلة غوى وضل معها، وإن أصابت الرشد سايرها على الرشد، فهو متّبع لها بإطلاق على كل حال، وهذا كحال الانتماء الوطني حاليًا الذي يلزم الشخص باتباع رأي الحكام حتى لو كان كفرًا أو باطلاً، ونفس الحال في التتار كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في وصفهم: "وهم يقاتلون على ملك جنكسخان (يعني ملكهم جنكزخان)، فمن دخل في طاعتهم جعلوه وليًا لهم،

(١) ورد هذا في إذاعة لندن عام ٢٠٠٤م، حيث تتبنى هذه الإذاعة المجرمة برامج موجهة تورد فيها آراء الناس حتى توجه من خلالها مفاهيم مخالفة للإسلام، فمرة عرضوا قضية زواج المسلمات من النصارى، ومرة عرضوا قضية الشذوذ الجنسي، وزواج الرجال من بعضهم، وهكذا حتى يمهدوا فكريًا لهذه الأفكار الكافرة.

(٢) ولنا رسالة مستقلة في التحذير من هذه المقولة الخطيرة بعنوان (تحذير المسلمين من شعار يحيا الهلال مع الصليب)، فلتراجع.

(٣) راجع (الموالاة والمعاداة) لمحماس بن عبد الله الجلعود صـ٦٠.

وإن كان كافرًا، ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوًا لهم وإن كان من خيار المسلمين، ولا يقاتلون على الإسلام ولا يضعون الجزية والصغار ..."[1]

فهنا يصفهم ابن تيمية –رحمه الله– بأنهم يقاتلون الناس حتى يدخلوهم في مُلكهم، فليس قتالهم في سبيل الله، ولكن في سبيل الانتصار لملكهم، ولذا من دخل في طاعتهم قربوه وجعلوه وليًا لهم لأنه والاهم، على مُلكهم، حتى لو كان كافرًا، ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوًا لهم –فهو عدو الوطن والنظام– وإن كان من خيار المسلمين، وهم لا يقاتلون لنصرة الإسلام ولا لإعلاء الشريعة الإسلامية أو الحكم بها، ولا يضعون الجزية والصغار على أهل الكتاب، كما قال تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة:٢٩] فهنا أمر تعالى بقتال أهل الكتاب وهم (اليهود والنصارى) حتى يدخلوا تحت حكم المسلمين ويُعطوا لهم الجزية وهم صاغرون –أي أذلة–. هذا هو حكم الله في أهل الكتاب، ولكن لـمّا تحول الناس إلى الجاهلية، ومنها (الموالاة على غير دين الإسلام)، كانت النتيجة أن (الانتماء للوطن) وهو مصطلح (الوطنية) أصبح هو الرابطة التي يلتف حولها الناس، وبالتالي أصبح الجهاد في سبيل الوطن، وأصبح العدو هو عدو الوطن، وليس الكافر، وأما الكافر فما دام وطنيًا فهو الأخ في الوطن، وهنا نذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2]، إذن القتال الذي في سبيل الله هو ما كان الغرض منه إعلاء دين الله، وشريعة الله، ولتكون كلمة الله هي العليا، وأما القتال في سبيل أغراضٍ أخرى فهو في سبيل الطاغوت.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/٢٨٤).

(٢) رواه البخاري (٣١٢٦)، ومسلم (١٩٠٤) واللفظ له.

(الخاتمة)

هل حققت التوحيد؟

الإيمان بالله

والكفر بالطاغوت

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم؛

وبعد أن ذكرنا أهمية التوحيد كأصل لهذا الدين وكشرط صحة لا تُقبل الأعمال الصالحة بدونه، وبيَّنا أن المشركين الأوائل كانوا يقرُّون بأن الله سبحانه هو الذي خلق ورزق وبيده ملكوت كل شيء، ومع ذلك أشركوا لأنهم اتخذوا وسائط بينهم وبين الله سبحانه يدعونهم، ويستغيثون بهم، ويذبحون لهم وغير ذلك، على سبيل أن هذه الأنداد –أصنام الصالحين– ستشفع لهم عند الله، وعلى سبيل أنها ستقربهم من الله سبحانه، كما قال سبحانه عنهم: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر:٣]، وكما قال تعالى عنهم: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [يونس:١٨]. وكذلك وقع المشركون في شرك آخر وهو جعل التحليل والتحريم إلى غير الله، فاستحلوا ما حرم الله، أو حرموا ما أحل الله، اتباعًا للكهنة والكبراء مثل (عمرو بن لحي) وغيره، وهذا كما قال تعالى عنهم: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [الشورى:٢١] فكل من شرع ما لم يأذن به الله وألزم الناس به فهو شريك لله سبحانه، وكما قال تعالى عن اليهود والنصارى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا} [التوبة:٣١]. وكذلك وقع المشركون في الولاء على غير دين الله فكانوا يوالي بعضهم بعضًا على القبلية العمياء وسفكوا الدماء وانتهكوا الحرمات لأجلها، فأتى الإسلام ليثبت الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين دون الكافرين كما قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:٥٥]، وفي المقابل نهى سبحانه عن موالاة الكافرين ومودتهم كما قال تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران:٢٨]، وكما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة:٢٣].

وهكذا كان الشرك موزعًا على:

- توجيه العبادات والشعائر والنسك لغير الله.
- وجعل التحليل والتحريم لغير الله.
- وجعل الولاء على غير دين الله سبحانه.

وفي المقابل كان التوحيد في أصله يشمل:

- إفراد الله بالشعائر والنسك وكل صور العبادات.
- وإفراد الله بالتشريع والتحليل والتحريم.

- وإفراد الله بالولاء؛ ومن توابعه الولاء للنبي صلى الله عليه وسلم، والولاء للمؤمنين على قدر إيمانهم، مع قطع الولاء مع الكافرين.

وهكذا كانت (لا إله إلا الله) تعني نفيًا وإثباتًا:

- نفيًا للألوهية عن غير الله.
- وإفراد الله بالألوهية.

وهذه الدعوة –دعوة التوحيد التي تتضمن نفيًا وإثباتًا– هي دعوة كل الرسل عليهم السلام، فإن الله سبحانه قال في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ} [النحل:٣٦]، وهذه الآية توضح بجلاء أن وظيفة جميع الرسل عليهم السلام هي الدعوة إلى عبادة الله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، ولن تتم عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت، وحيث إن جميع الرسل عليهم السلام قد اتفقوا في الدعوة إلى التوحيد وكل رسول دعا قومه إلى هذه الكلمة (لا إله إلا الله) و(يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٢٥].

ولذا تكررت نفس الكلمة على لسان كل الرسل عليهم السلام كما قال تعالى عن نوح عليه السلام: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف:٥٩]، وقال تعالى عن هود عليه السلام: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [الأعراف:٦٥] وقال تعالى عن صالح عليه السلام: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف:٧٣].

وهكذا تتفق دعوة كل الرسل عليهم السلام على نفس الكلمة ونفس الدعوة حتى المسيح عليه السلام الذي عبدته النصارى حيث قال الله عنه: {وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة:٧٢].

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء عليهم السلام أبرز هذه الدعوة –دعوة التوحيد– بالبراءة من الشرك والأنداد الباطلة، ثم أثبت العبادة لله وحده كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف:٢٦-٢٨]، أي وجعل هذه الدعوة من البراء من غير الله وإفراد الله بالعبادة كلمة باقية في عقبه: أي كلمة التوحيد الباقية التي تتضمن نفيًا وإثباتًا.

والمقصود أن كل الرسل عليهم السلام اتفقوا في الدعوة إلى التوحيد، اتفقوا في الدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ كل ما يُعبد من دون الله، اتفقوا في الدعوة إلى عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، فدل ذلك بوضوح على أن دعوة (لا إله إلا الله) هي نفس الدعوة إلى عبادة الله وحده واجتناب

عبادة الطاغوت، فإن الشرك المنافي للتوحيد يتضمن دائمًا عبادة الطاغوت، وإن التوحيد يتضمن الكفر بالطاغوت واجتناب عبادته، فمن أفرد الله وحده بالعبادة كفر بالطاغوت، ومن عبد الطاغوت فقد أشرك بالله.

- ومما يزيد الأمر بيانًا أيضًا أن الله سبحانه قال: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦].

ومعنى قوله تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ} أي: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بكلمة التوحيد، فالعروة الوثقى هي التوحيد، وهي الجهة المتينة التي من تمسك بها فقد أمسك بالدين من جهة متينة وحلقة قوية لا تنفصم.

فدل هذا على أن تحقيق التوحيد (العروة الوثقى) يُشترط له شرطان:

١- الكفر بالطاغوت. ٢- الإيمان بالله.

- أيضًا فإن الله سبحانه بيّن في كتابه العزيز أن الخلق إما أن يعبدوه وإما أن يعبدوا الطاغوت على اختلاف أنواعه، فمن عبده سبحانه فقد صار وليًا له فهداه الله وأخرجه من الظلمات إلى النور.

ومن عبد الطاغوت فقد استحق الضلالة وخرج من النور إلى الظلمات وهذا كما قال تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢٥٧]، فانقسم الخلق إلى قسمين: (مؤمنين) وهؤلاء يتولاهم الله سبحانه ويخرجهم من الظلمات إلى النور، و(كفار) أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ودل هذا على أن الطاغوت يُعبد من دون الله.

وبيّن سبحانه في كتابه أن البشرى تحصل في الآخرة لمن اجتنب عبادة الطاغوت وعبد الله وحده كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ البُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} [الزُّمر:١٧].

- إذن بان معنا أهمية الكفر بالطاغوت مع عبادة الله سبحانه:

١- فالكفر بالطاغوت شرط صحة لتحقيق كلمة التوحيد {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا} فاشترط سبحانه الكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله لتحقيق العروة الوثقى وهي شهادة التوحيد.

٢- والكفر بالطاغوت هو دعوة كل الرسل عليهم السلام حيث دعوا جميعًا إلى عبادة الله وحده واجتناب عبادة الطاغوت، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}.

٣- والخلق ينقسمون إلى قسمين؛ (مؤمنين) يتولاهم سبحانه ويخرجهم من الظلمات إلى النور، و(كافرين) يخرجهم الطاغوت من النور إلى الظلمات ويتولاهم على كفرهم كما قال تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢٥٧].

٤- والبشرى تحصل في الآخرة لمن عبد الله وحده واجتنب عبادة الطاغوت كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ..} [الزُّمر:١٧].

٥- ولذا أيضًا انقسم الناس في الولاء والنصرة إلى قسمين: قسم ينصر دين الله وحده ويقاتل لأجل نصرة هذا الدين، وقسم ينصر الطاغوت على اختلاف أنواعه ويقاتل في سبيل الطاغوت كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء:٧٦].
وقد دلت هذه الآية على التالي:

- المؤمنون لا يقاتلون إلا في سبيل الله: أي: نصرة الله سبحانه، أي: نصرته سبحانه ورسوله ودينه.
- القتال في سبيل الطاغوت من خصائص الكافرين.
- كل طاغوت متبعٌ للشيطان في الحقيقة {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}.
- القتال من أعلى صور النصرة والولاء؛ فالمؤمنون يوالون الله سبحانه ورسله ودينه، والكافرون يوالون الطاغوت وأتباعه.

****

فإذا بان معنا أهمية الكفر بالطاغوت، وأنه لا يتحقق الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت؛

- **فما هو الطاغوت؟**

الطاغوت: مشتق من الطغيان –وهو مجاوزة الحد–، والمقصود أن الطاغوت هو ما طغى على حق الله سبحانه أو حاول النزاع في خصيصة من خصائص الله.

وبتتبع القرآن الكريم والسنة المطهرة يمكن أن نذكر رؤوس الطاغوت كالتالي:

١- **الشيطان**؛ فإنه رأس كل طاغوت فهو أول من تكبر على أمر الله وأخذ العهد على نفسه بإضلال الخلق، ولذا قال سبحانه: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يس:٦٠].

٢- **طاغوت الحكام**؛ الذين يحكمون بغير شرع الله سبحانه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا} [النساء:٦٠]، فقوله سبحانه: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ} دل على أن المراد بالطاغوت هنا هو من يُتحاكم إليه غير الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويؤكده أيضًا ما ورد في الحديث عن أبي شريح أنه كان

يُكنى (أبا الحكم) فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»[1]، فمن نازع الله في حكمه فهو طاغوت.

٣- **طاغوت العلماء**؛ الذين يحلون الحرام أو يحرمون الحلال وهم يعلمون؛ لأنهم بذلك ينازعون الله سبحانه في حق التحليل والتحريم، ويبينه قوله سبحانه وتعالى عن اليهود والنصارى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا} [التوبة:٣١]، وقد سبق أن ذكرنا أن عديًا بن حاتم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ"، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :«أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»، قال عدي: بلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[2]. فهنا فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم أن اتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابًا من دون الله معناه أنهم اتبعوهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال. وقد سمَّى الله سبحانه الأحبار والرهبان أربابًا لأنهم نازعوا الله سبحانه في التحليل والتحريم.

ويُلحق بهذا الكهان الذين يحكمون بين الناس بالأهواء والمجالس العرفية أو البدوية التي تحكم بغير الشرع، أو المجالس النيابية التي يجعلون لها سلطة التشريع والتحليل والتحريم ويسمونها (السلطة التشريعية) ويعتبرون أحكامها ملزمة، ويعاقبون من خالفها، ويُضفون عليها صفة التعظيم والتقديس.

٤- **طاغوت الكهان**؛ الذين يدعون معرفة الغيب؛ حيث إن معرفة الغيب أمر يخص الله سبحانه كما قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النمل:٦٥]، وكما قال تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ..} [الأعراف:١٨٨]. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا يُؤْمِنُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3]؛ لأنه بذلك صدقه في أمر لا يعلمه إلا الله سبحانه، فالكاهن أو العراف ينازع الله سبحانه في خصيصة من خصائصه.

٥- **طاغوت الهوى**؛ حيث سمَّى الله سبحانه في كتابه العزيز الهوى إلهًا كما قال عز وجل: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً} [الفرقان:٤٣]، وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية:٢٣]، فهنا سمَّى الله سبحانه الهوى إلهًا، وقال أحد السلف: ما تحت أديم السماء إلهٌ يُعبد من دون الله أعظم من هوى مُتَّبع.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن جرير والطبراني بإسناد حسن.

(٣) رواه أحمد والحاكم والبيهقي.

فإن قيل: إن اتباع الهوى يشمل كل اتباع للهوى يخالف دين الله سواء كان معصيةً أم كفرًا، فكيف نقول إن فلانًا يعبد هواه أو يتبع هواه؟ وهل كل اتباع للهوى يجعل العبد كافرًا؟

والجواب: أن هناك فرقًا بين اتباع الهوى في بعض الأشياء خاصة في المعاصي والكبائر فهذا اتباع معصية وفسق، وبين الاتباع المطلق للهوى دون قيد أو شرط أو اتباع الهوى في الكفر، أو اتباع الهوى بما يصطدم مع الشرع بحيث يكون العبد متبعًا للهوى لا لأمر الله سبحانه.

وكأمثلة بسيطة نوضح لك مدى تأليه الناس لأهوائهم:

- فمن الناس من اخترعوا أديان جديدة بأهوائهم وقدموها على دين الله، كدين الشيوعية والوجودية والديمقراطية والليبرالية ..وغير ذلك.
- ومن الناس من اتبعوا أهواءهم فاستحلوا الحرام وحرموا الحلال بالهوى دون دليل، كمن يستحلون الزنا والخمر تحت اسم الفن والعمل الدرامي ونحو ذلك.
- ومن الناس من يسخرون من الدين تحت اسم الحرية والليبرالية.
- ومن الناس من ينتقد دين الله أو بعضًا منه بحجة أنه يعارض عقله، وأن عقله لا يستحسن حكم الشرع، وهذا كمن يرفض الحجاب أو الحكم بالشريعة الإسلامية أو الحدود الشرعية أو تعدد الزوجات –حتى بشرط العدل– أو غير ذلك بحجة أن عقله يرفض هذه الأحكام أو بعضها، فالمرجعية العليا عنده ليس لشرع الله والدليل الشرعي، وإنما لهواه لا أكثر.
- ومن الناس من يقدِّم الوطن على الدين، أو يدعو إلى توحيد الأديان، ويعتبر أن هذه الأديان المحرفة متساوية مع الإسلام وكلها مذاهب وطرق تؤدي إلى الله.
- ومن الناس من يدعو للتحلل من الأديان ويعتبر أن التصوف أو اليوجا أو الاختراعات العقلية يمكن أن تؤدي نتيجة الدين وتحقق نفس مضمونه ...

هذه مجرد أمثلة لعبودية الهوى، وجعله مقدمًا على شرع الله وحكمه سبحانه، بل عبيد الهوى هؤلاء مهمتهم انتقاص دين الله سبحانه او استحسان مناهج غيره، وكلها أمثلة مكفرة كما رأيت، تدور حول رفض شرع الله سبحانه أو اتهامه بالنقص أو الرجعية أو استحسان غير ما شرعه الله سبحانه، أو التعبد لله بما لم يشرع ...

وكثيرًا ما يتم هذا تحت أسماء وشعارات رنانة مثل (الإسلام المستنير، ومحاربة الرجعية الدينية، وتجديد الخطاب الديني، ونحو إسلام حضاري ..) ونحو ذلك.

- وقد عرَّف بعض أهل العلم الطاغوت بأنه: (من عُبد من دون الله وهو راضٍ).

وفي النهاية نذكر تعريف الإمام ابن القيم –رحمه الله– حيث قال: "الطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ؛ فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ يَتْبَعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنْ اللَّهِ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ؛ فَهَذِهِ طَوَاغِيتُ الْعَالَمِ إذَا تَأَمَّلْتَهَا وَتَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ مَعَهَا رَأَيْت أَكْثَرَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ إلَى عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَعَنْ التَّحَاكُمِ إلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ إلَى التَّحَاكُمِ إلَى الطَّاغُوتِ، وَعَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ إلَى طَاعَةِ الطَّاغُوتِ وَمُتَابَعَتِهِ"(١).

وإذا كنا قد رأينا قوله تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٢٥٧]، فدل هذا على أن عبادة الطاغوت أو اتباعه أو طاعته تُخرِج من ملة الإسلام، ويؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «.. يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ..»(٢)، فدل هذا على أن من كان يعبد الطواغيت فإنه يتبعهم إلى نار جهنم والعياذ بالله تعالى.

- وقد بان معنا أن عبادة الطاغوت تشمل:
  - توجيه العبادة له من دون الله.
  - أو اتباعه في حكمه المنافي للشرع.
  - أو طاعته في غير ما شرع الله.

كانت هذه نبذة عن علاقة الكفر بالطاغوت –كشرط لتحقيق التوحيد– مع الإيمان بالله وطاعته وإفراده بالعبادة.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يجتنبون عبادة الطاغوت، ويؤمنون بالله وحده ... آمين.

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

فهرس الموضوعات